# المناسبات في سورة الإسراء

إعـداد

**أ.د. محسن عبد العظيم الشاذلي**
أستاذ مساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن الكريم
كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالسادات

**العام الجامعي**
**٢٠٢٤/١٤٤٦**

# المناسبات في سورة الإسراء

## محسن عبد العظيم الشاذلي

**قسم:** التفسير وعلوم القرآن، الكلية: كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالسادات، جامعة الأزهر مدينة السادات، جمهورية مصر العربية.

**البريد الإلكتروني:** MohsenAl-shazly.33@azhar.edu.eg

**ملخص البحث**

فهذا البحث المعنون بـ**(المناسبات في سورة الإسراء)** يؤصل لجانب جديد في جوانب التناسب في القرآن الكريم، وهو التناسب بين اسمي السورة الواحدة، ويهدف إلى إثبات أن السورة الواحدة التي تحمل أكثر من اسم يمكن الربط بين أسمائها، وكذا الربط بين كل اسم وموضوعاتها، ويهدف كذلك إلى إبراز عمق المناسبة بين مواضيع الآيات وعباراتها وألفاظها وبين المحور العام للسورة،.

وقد بينت الشق الأول من خلال بيان اسمي السورة وتوضيح العلاقة بينهما، ثم عرجت على علاقة كل اسم منهما مع المحور العام للسورة الكريمة.

كما بينت الشق الثاني من خلال اختيار جزء من السورة الكريمة وإبراز المحور العام للسورة من خلاله –وكأنه هو وحده السورة– ثم بينت كيف أن عبارات الآيات الكريمة في هذا الجزء –وكذلك ألفاظها– تتسق تماما مع الموضوع العام للسورة الكريمة. تكلمت في المقدمة عن أهمية الموضوع وخطة البحث وأسباب اختياره، وجعلت التمهيد للتعريف بالسورة الكريمة، وبيان العلاقة بين اسميها. وجعلت الفصل الأول بعنوان وجوه المناسبات في السورة بشكل عام، وفيه مباحث: المبحث الأول عن علاقتها بجارتها– المبحث الثاني علاقة اسميها بموضوعاتها المبحث الثالث علاقة أولها بآخرها المبحث الرابع عن الموضوع العام للسورة. وخصصت الفصل الثاني للكلام عن المناسبات في آيات السورة الكريمة ، واخترت

ربع (ولقد كرمنا بني آدم) للتطبيق عليه، ثم كانت الخاتمة، متضمنة أهم نتائج البحث، وتوصياته.

**التزمت فيه المنهج** التحليلي، الاستنباطي، حيث قمت بتفسير المفردات والجمل ثم استنباط النتائج من خلالها ، **وانتهيت فيه إلى عدة نتائج** ، أبرزها أن أسماء السور –باعتبارها توقيفية– لها دلالات وتطبيقات في آيات السورة ذاتها ، كما أن هناك ارتباطا وثيقا بين الأسماء المتعددة للسورة الواحدة ، وقد ظهر ذلك جليا في اسمي هذه السورة المباركة، كذلك موضوع سورة الإسراء الرئيس هو "التكريم والتفضيل" .. تكريم المسجد الأقصى، وتكريم القرآن لذويه، وتكريم المجتمع المسلم، وتكريم الله للبشر على الجن، وتكريم الله للإنسان.

**أخيرا يوصي الباحث** بضرورة تثوير المناسبات في أسماء السور فذلك باب كبير من الجمال القرآني.

**الكلمات المفتاحية** : [ الإسراء– المناسبات – السورة – الصورة – الجمال ]

# The Occasions in Surah Al-Isra

**Mohsen Abdel Azim El Shazly.**
Assistant Professor - Quranic Exegesis Department, Al Azhar university, Islamic and Arabic Studies for Girls, Sadat City.Egypt.
Email: MohsenAl-shazly.33@azhar.edu.eg

## Abstract

This research, entitled **(The Occasions in Surah Al-Isra),** establishes a new aspect in the aspects of proportionality in the Holy Qur'an, It aims to prove that a single surah that has more than one name can be linked between its names, as well as a link between each name and its topics. It also aims to highlight the depth of the correspondence between the topics of the verses, their phrases and words, and the general focus of the surah.

I explained the first part by explaining the names of the surah and clarifying the relationship between them, then I looked at the relationship of each name with the general focus of the noble surah.

I also explained the second part by selecting a part of the Noble Surah and highlighting the general theme of the Surah through it - as if it were the only Surah - and then I showed how the expressions of the Noble Verses in this part - as well as their words - are completely consistent with the general theme of the Noble Surah.

In the introduction, I spoke about the importance of the topic, the research plan, and the reasons for choosing it. I made the introduction to introducing the Holy Surah and explaining the relationship between its names.

I made the first chapter entitled the aspects of occasions in the surah in general, and it contains topics: the first topic is about its relationship with its neighbor -

The second topic is the relationship between its names and its topics

The third topic is the relationship between the beginning and the end

The fourth section is about the general topic of the surah.

I devoted the second chapter to talking about the occasions in the verses of the Noble Surah, and I chose a quarter (And We have honored the children of Adam) to apply to it.

Then was the conclusion, including the most important results of the research and its recommendations.

**I adhered to the analytical and deductive approach**, where I interpreted vocabulary and sentences and then derived results from them.

**In it, I reached several results**, the most prominent of which is that the names of the surahs - as they are suspended - have connotations and applications in the verses of the surah itself, and that there is a close connection between the multiple names of one surah, and this has clearly appeared in the two names of this blessed surah, as well as the main subject of Surat Al-Isra is " Honor and preference... honoring Al-Aqsa Mosque, honoring the Qur'an to its people, honoring the Muslim community, God honoring humans over the jinn, and God honoring humans.

**Finally, the researcher recommends** the necessity of mentioning occasions in the names of the surahs, as this is a great section of the Qur'anic beauty

**Keywords** Al-Isra- **-** occasions – Surah- Image- Beauty□

## مقدمة البحث

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونسترضيه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فهو المهتدي، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا.

**وبعد:**

فإن علم المناسبات علم شريف ذو قدر كبير، ويظهر أول ما يظهر في السورة القرآنية، ولكل سورة من سور القرآن الكريم مذاق خاص بها، يظهر في ارتباطها بما حولها، ودلالة اسمها على موضوعاتها، وتناسق آياتها وتراكيبها مع محورها العام، وبإبراز هذه الوجوه من المناسبات في السورة يبدو جمال القرآن الكريم وجلاله.

وقد اخترت من بين سور القرآن الكريم سورة الإسراء أو سورة بني إسرائيل، للحديث عن وجوه المناسبات فيها بما يلوح لي من معانيها وتراكيب آياتها.

**عنوان البحث:**

**عنونت هذا البحث بـ(المناسبات في سورة الإسراء)**

**أهمية الموضوع:**

تظهر أهمية هذا الموضوع من عدة جوانب، هي:

**أولا:** تعلق هذه السورة الكريمة بمعجزة كبرى من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم هي معجزة الإسراء.

**ثانيا:** تعلق اسم وآيات هذه السورة بالمسجد الأقصى المبارك –نسأل الله أن يحفظه ويرده إلى حمى المسلمين.

**ثالثا:** تعلق موضوع هذه السورة –التكريم– بحال الأمة المسلمة وما يصبو إليه أبناؤها في كل وقت ومكان من الكرامة والريادة.

**رابعا:** تعدد أسماء هذه السورة المباركة (الإسراء – وبنو إسرائيل) وطمعي أن يكون هذا البحث بداية وتأسيسا للون جديد من المناسبات في سور القرآن الكريم وهو التناسب بين أسماء السورة الواحدة متعددة الأسماء.

**إشكالية البحث:**

تبدو إشكالية هذا البحث في نقطتين:

**الأولى:** هل هناك علاقة بين الأسماء المتعددة للسورة الواحدة ؟.

**الثانية:** هل يمكن ربط موضوعات السورة وآياتها وتراكيبها ومفرداتها بأسمائها؟.

**خطة البحث:**

وجعلته في مقدمة وتمهيد، وفصلين وخاتمة.

**تكلمت في المقدمة** عن أهمية الموضوع وأسباب اختياره وخطة البحث، وجعلت **التمهيد** للتعريف بعلم المناسبات، وبالسورة الكريمة، وبيان العلاقة بين اسميها.

**وجعلت الفصل الأول بعنوان وجوه المناسبات في السورة بشكل عام، وفيه مباحث:**

**المبحث الأول:** عن علاقتها بجارتها.

**المبحث الثاني:** علاقة اسميها بموضوعاتها.

**المبحث الثالث:** علاقة أولها بآخرها.

**المبحث الرابع:** عن الموضوع العام للسورة.

**وخصصت الفصل الثاني للكلام عن المناسبات في آيات السورة الكريمة، واخترت ربع (ولقد كرمنا بني آدم) للتطبيق عليه**

**ثم كانت الخاتمة،** متضمنة أهم نتائج البحث، وتوصياته.

**سائلا المولى ﷻ أن يوفقني للحق، ويلهمني السداد والرشد، ويغفر لي ما وقعت فيه من خطأ أو نسيان أو تقصير، وأن ينفع به قارئه وكاتبه. اللهم آمين.**

**د. محسن عبد العظيم الشاذلي**

# التمهيد

## التعريف بالمناسبات

المناسبات في القرآن الكريم أحد مباحث علوم القرآن ، جعله الزركشي العلم الثاني وقال " وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُنَاسَبَةَ عِلْمٌ شَرِيفٌ تُحْرَزُ بِهِ الْعُقُولُ وَيُعْرَفُ بِهِ قَدْرُ الْقَائِلِ فِيمَا يَقُولُ وَالْمُنَاسَبَةُ فِي اللُّغَةِ الْمُقَارَبَةُ وَفُلَانٌ يُنَاسِبُ فُلَانًا أَيْ يَقْرُبُ مِنْهُ وَيُشَاكِلُهُ وَمِنْهُ النَّسِيبُ الَّذِي هُوَ الْقَرِيبُ الْمُتَّصِلُ كَالْأَخَوَيْنِ وَابْنِ الْعَمِّ وَنَحْوِهِ وَإِنْ كَانَا مُتَنَاسِبَيْنِ بِمَعْنًى رَابِطٍ بَيْنَهُمَا وَهُوَ الْقَرَابَةُ .. وَلِهَذَا قِيلَ الْمُنَاسَبَةُ أَمْرٌ مَعْقُولٌ إذَا عُرِضَ عَلَى الْعُقُولِ تَلَقَّتْهُ بِالْقَبُولِ وَكَذَلِكَ الْمُنَاسَبَةُ في فواتح الآي وخواتمها ومرجعها –والله أعلم– إلى معنىً مَا رَابَطَ بَيْنَهُمَا عَامٌّ أَوْ خَاصٌّ عَقْلِيٌّ أَوْ حِسِّيٌّ أَوْ خَيَالِيٌّ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أنواع العلاقات أو التلازم الذهي كَالسَّبَبِ وَالْمُسَبَّبِ وَالْعِلَّةِ وَالْمَعْلُولِ وَالنَّظِيرَيْنِ وَالضِّدَّيْنِ وَنَحْوِهِ أَوِ التَّلَازُمِ الْخَارِجِيِّ كَالْمُرَتَّبِ عَلَى تَرْتِيبِ الْوُجُودِ الْوَاقِعِ فِي بَابِ الْخَبَرِ وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بِأَعْنَاقِ بَعْضٍ فَيَقْوَى بِذَلِكَ الِارْتِبَاطُ وَيَصِيرُ التَّأْلِيفُ حاله حال الْبِنَاءِ الْمُحْكَمِ الْمُتَلَائِمِ الْأَجْزَاءِ"(١).

وَقَدْ قَلَّ اعْتِنَاءُ الْمُفَسِّرِينَ بِهَذَا النَّوْعِ لِدِقَّتِهِ وَمِمَّنْ أَكْثَرَ مِنْهُ الْإِمَامُ فَخْرُ الدِّينِ الرَّازِيُّ وَقَالَ فِي تَفْسِيرِهِ أَكْثَرُ لَطَائِفِ الْقُرْآنِ مُودَعَةٌ فِي التَّرْتِيبَاتِ وَالرَّوَابِطِ"(٢).

وجعله السيوطي في الإتقان النَّوْعُ الثَّانِي وَالسِّتّينَ: وقال " أَفْرَدَهُ بِالتَّأْلِيفِ الْعَلَّامَةُ أَبُو جَعْفَرِ بْنُ الزُّبَيْرِ شَيْخُ أَبِي حَيَّانَ فِي كِتَابٍ سَمَّاهُ "الْبُرْهَانَ فِي مُنَاسَبَةِ تَرْتِيبِ سُوَرِ الْقُرْآنِ" وَمِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ الشَّيْخُ بُرْهَانُ الدِّينِ الْبِقَاعِيُّ فِي كِتَابٍ سَمَّاهُ "نَظْمُ الدُّرَرِ فِي تَنَاسُبِ الْآيِ وَالسُّوَرِ" وكتابي الذي صنعته فِي أَسْرَارِ التَّنْزِيلِ كَافِلٌ بِذَلِكَ جَامِعٌ لِمُنَاسَبَاتِ السُّوَرِ وَالْآيَاتِ مَعَ مَا تَضَمَّنَهُ مِنْ بَيَانِ وُجُوهِ الْإِعْجَازِ

(١) «البرهان في علوم القرآن» (١/ ٣٥)

(٢) «تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير» (١٠/ ١١٠)

وَأَسَالِيبِ الْبَلَاغَةِ وَقَدْ لَخَّصْتُ مِنْهُ مناسبات السُّوَرِ خَاصَّةً فِي جُزْءٍ لَطِيفٍ سَمَّيْتُهُ "تَنَاسُقَ الدُّرَرِ فِي تَنَاسُبِ السُّوَرِ"(١).

«وقال الشيخ أبو الحسن الشهراباني أَوَّلُ مَنْ أَظْهَرَ بِبَغْدَادَ عِلْمَ الْمُنَاسَبَةِ وَلَمْ نَكُنْ سَمِعْنَاهُ مَنْ غَيْرِهِ هُوَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ أَبُو بَكْرٍ النَّيْسَابُورِيُّ وَكَانَ غَزِيرَ الْعِلْمِ فِي الشَّرِيعَةِ وَالْأَدَبِ وَكَانَ يَقُولُ عَلَى الْكُرْسِيِّ إِذَا قرئ عليه الآية لِمَ جُعِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ إِلَى جَنْبِ هَذِهِ؟ وَمَا الْحِكْمَةُ فِي جَعْلِ هَذِهِ السُّورَةِ إِلَى جَنْبِ هَذِهِ السُّورَةِ؟»(٢).

**وهي أنواع** : أشهرها التناسب بين السور بعضها وبعض، وبين الآيات ، وترتيب السور "وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لِتَرْتِيبِ وَضْعِ السُّوَرِ فِي الْمُصْحَفِ أَسْبَابٌ تُطْلِعُ عَلَى أَنَّهُ تَوْقِيفِيٌّ صَادِرٌ عَنْ حَكِيمٍ" ومن أنواع المناسبات "مُنَاسَبَةُ أَسْمَاءِ السُّوَرِ لِمَقَاصِدِهَا" وسأحاول في هذا البحث تسليط الضوء على هذه الأنواع في السورة الكريمة ، وأضيف إليها التناسب بين اسمي السورة الكريمة.

## التعريف بالسورة الكريمة

جاء في «صحيح البخاري عن ابن مسعود ﷺ قال، في بني إسرائيل والكهف ومريم: إنهن من العتاق الأول، وهن من تلادي.» وفي رواية قال: بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء: هن من العتاق الأول، وهن من تلادي.»(٣).

في هذا الأثر وصف لهذه السور الكريمة –ومنها سورة الإسراء– بثلاث صفات (العتاق– الأول–تلادي): ، جاء فيفي كتاب «الهداية الى بلوغ النهاية» : «يريد أنهن [نزلن] في أول ما نزل [من القرآن] وهو صغير»(٤) قلت: هذا مدلول الوصف بـ(الأول).

---

(١) «الإتقان في علوم القرآن» (٣/ ٣٦٩)

(٢) «البرهان في علوم القرآن» (١/ ٣٦)

(٣) «صحيح البخاري» (٤/ ١٧٤١) كتاب التفسير – باب: سورة بني إسرائيل [الإسراء] حديث رقم ٤٤٣١.

(٤) الهداية الى بلوغ النهاية» (٦/ ٤١٢١)

والوصف ب(العتاق) أي بلغ الغاية في الجودة ، قال البيهقي «يريد تفضيل هذه السور لما تضمن من ذكر القصص وأخبار الأنبياء عليهم [الصلاة] السّلام [وأخبار الأمم]» (١)

و(التلاد) : ما كان قديم الملك من المال والقنية. ومعناه هنا ما قدمت صحبته من القرآن الكريم

وسورة الإسراء مكية كلها، في قول جمهور المفسرين[٢] ويبدو من سياق آياتها وموضوعاتها أنها كانت في آخر العهد المكي، قبيل الهجرة، ويشير موضوع بعض آيات منها إلى مدنية هذه الآيات دون سائر السورة[٣]؛ ففيها الحديث عن بني إسرائيل، الذين لم يتعامل معهم المسلمون إلا في المدينة كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾.

(١) «شعب الإيمان» (٢/ ٤٧٦ ت زغلول)

(٢) واستدل لذلك السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور» (١٨١/٥) عَن ابْن عَبَّاس قَالَ: نزلت سُورَة بني إِسْرَائِيل بِمَكَّة» وقال بعضهم: إلا قولَه: {وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ}»«فتح الرحمن في تفسير القرآن» (٦٩/٤) قلت: ولا دليل له. والله أعلم.

(٣) لكن مثل هذا لا يعتمد في الحكم بمدنية السورة أو الآية، إنما يمكن اعتباره تمهيدا للمسلمين بالحذر من هؤلاء والاعتبار بهم

ومن القرائن على مكيتها أن فيها الحديث عن تبييت الكافرين[١] نية السوء لرسول الله ﷺ ومحاولتهم إثناءه عن دعوته أو إخراجه من الأرض، وقد وقع ذلك من كفار مكة في أواخر العهد المكي كما يشير إلى ذلك قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[الأنفال: ٣٠]، وفي قوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. وتكرر من يهود المدينة ومنافقيها مرات كثيرة، كما حدث من يهود بني النضير، ويهود بني قريظة، وما كان من أمر مسجد الضرار.

وفيها الحديث عن الصلوات الخمس التي لم تفرض –بتمامها وهيئتها– إلا في ليلة الإسراء والمعراج، وذلك في السنة الثانية عشرة من البعثة النبوية، وفي الليلة السابعة والعشرين من شهر رجب، على المشهور[٢]:﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ

---

(١) سواء كان المشركون هنا هم أهل مكة، أم الكفار في المدينة، فالكل قد حاول ذلك، لكن الله ﷻ عصم نبيه ﷺ منهم.

(٢) اختلف الناس: في أي سنة كان الإسراء ؟ وملخص ما قالوه: قال الزهري: كان الإسراء بعد المبعث بخمس سنين ونقل القاضي عياض – عنه أيضا – أنه قبل الهجرة بخمس، ورجحه، وتابعه القرطبي، والنووي. قبل الهجرة بسنة، قاله ابن حزم وادعى فيه الإجماع. قال ابن حجر " وهو – أي الإجماع مردود ؛ فإن في ذلك اختلافا كثيرًا يزيد على عشرة أقوال "

وقيل: قبل الهجرة بسنة وخمسة أشهر، أي: في شوال قاله السدي، أخرج ذلك عنه الطبري والبيهقي. وقيل: كان في رجب حكاه ابن عبد البر، وابن قتيبة. وقيل: كان قبل الهجرة بسنة وثلاثة أشهر، أي: في ذي الحجة– وبه جزم ابن فارس. وقيل: قبل الهجرة بثلاث سنين، ذكره ابن الأثير. وقيل: في السابع والعشرين من رجب، واختاره الحافظ المقدسي.

**بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾** جاء في التفسير: "أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ يعنى إذا زالت الشمس عن بطن السماء يعني عند صلاة الأولى والعصر، إلى غَسَقِ اللَّيْلِ يعني ظلمة الليل إذا ذهب الشفق يعني صلاة المغرب والعشاء، وَقُرْآنَ الْفَجْرِ يعنى قرآن صلاة الغداة إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، جمع صلاة الخمس في هذه الآية كلها"(١).

وفيها –كما لا يخفى– الحديث عن "الإسراء"، تلك الرحلة الربانية المليئة بوجوه التكريم للنبي محمد ﷺ **﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾**.

**اسمها:**

اسمها المشهور "الإسراء"، وورد في السنة الصحيحة إطلاق "بني اسرائيل" عليها، وبه بَوَّبَ البخاري بابًا في كتابه فجعله تحت عنوان: سورة بني إسرائيل" وأخرج عن أبي إسحاق قال: سمعت عبد الرحمن بن يزيد، سمعت ابن مسعود ﷺ قال في بني إسرائيل والكهف ومريم: إنهن من العتاق الأول، وهن من تلادي"(٢).

واسما السورة المذكوران (الإسراء وبني إسرائيل) نلمح بينهما جناسا ناقصا فحروف (إسراء) هي حروف(إسرائيل) وتزيد الثانية بياء ولام، هذا التشابه يدل على وجود نوع من الترابط اللفظي بينهما، كما أنهما يشتركان في دلالتهما في معنى التكريم.

**فالاسم الأول (الإسراء)** يشير إلى رحلة تكريم لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حدثت له بعد سلسلة من الشدائد التي ألمت به قبل حدوثها، كوفاة عمه أبي طالب، ووفاة زوجه خديجة رضي الله عنها، ثم ما جرى له ﷺ على أيدي السفهاء

(١) تفسير مقاتل بن سليمان» (٥٤٦/٢)، تفسير القرآن من الجامع لابن وهب» (١٢٠/٢)، تفسير ابن أبي حاتم» (٢٧٠٤/٨).

(٢) صحيح البخاري (٨٢/٦ كتاب تفسير القرآن باب سورة بني اسرائيل حديث رقم ٤٧٠٨.

من أهل الطائف[١]، فجاءت رحلة الإسراء تسلية لهﷺ، محفوفة بمظاهر التكريم، سواء في التعبير عنها في القرآن الكريم أو في أحداثها، ومن مظاهر هذا التكريم:

**أولا: اختيار أفضل وصف،** وهو وصفه ﷺ بالعبودية في مطلع السورة يقول ابن كثير رحمه الله: «وَقَدْ سَمَّى اللَّهُ رَسُولَهُ بِعَبْدِهِ فِي أَشْرَفِ مَقَامَاتِهِ فَقَالَ: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنـزلَ عَلَى عَبْـدِهِ الْكِتَـابَ**﴾ [الْكَهْفِ: ١] ﴿**وَأَنَّـهُ لَمَّـا قَـامَ عَبْـدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ**﴾[الْجِنّ: ١٩] ﴿**سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلا**﴾ [الْإِسْرَاءِ: ١] فَسَمَّاهُ عَبْدًا عِنْدَ إِنْزَالِهِ عَلَيْهِ وَقِيَامِهِ فِي الدَّعْوَةِ وَإِسْرَائِهِ بِهِ»[٢].

**ثانيا: اختيار الزمان الأفضل** ﴿ لَيْلًا ﴾ والليل وقت الصفاء ووقت الخلوة.

**ثالثا: اختيار المكان الأفضل،** فقد اختير أفضل بقعتين لبداية ونهاية الرحلة ﴿**مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى**﴾.

**رابعا: تخصيص مركبٍ** –هو البراق– لم يكن لأحد قبله صلى الله عليه وسلم، ففي صحيح مسلم: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ، وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ، يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ.. "[٣].

**خامسا: اختيار الصاحب** وهو جبريل عليه السلام أمين الملائكة وسفير الوحي.

**سادسا: اختيار الحشد** الذي يستقبله ﷺ هناك، وهم الأنبياء، صفوة الله من خلقه.

**سابعا: صلاته بهم** – عليهم جميعا صلوات الله وسلامه– إماما.

كل هذه المظاهر تجعل من (الإسراء) محطة تكريم لا تنكر في حياة النبيﷺ، وهذا هو الاسم الأول للسورة الكريمة. وسيأتي مزيد بيان لمعنى الإسراء قي المبحث الثاني.

---

(١) كما في إمتاع الأسماع (١/٤٥).

(٢) تفسير ابن كثير – ت السلامة» (١/١٣٦).

(٣) صحيح مسلم» (١/٩٩ ط التركية) كِتَابُ الْإِيمَانَ بَابُ الْإِسْرَاءِ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى السَّمَاوَاتِ، وَفَرْضِ الصَّلَوَاتِ.

والاسم الثاني للسورة (بنو إسرائيل) وإسرائيل: نبي الله يعقوب عليه السلام، وبنوه: جميع ذريته من بعده، وهو –أعني مصطلح بني إسرائيل– يطلق في القرآن الكريم ويراد به اليهود والنصارى معا، وقد كثر حديث القرآن الكريم عنهم باعتبارهم النموذج الأبرز والأخطر في تاريخ البشرية[1] وبنظرة سريعة على استعمال القرآن الكريم للمصطلحات التي عبر بها عن هذه الطائفة نجد أن هناك ثلاثة مصطلحات (بني إسرائيل– أهل الكتاب – اليهود أو الذين هادوا).

ومصطلح (بني إسرائيل) هو الأكثر ورودا في القرآن الكريم، وغالب وروده في سياق التكريم[2]، من خلال ذكر نعمة الله عليهم في قوله تعالى ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ [البقرة: ١٢٢]، وانجائهم من فرعون وبطشه في قوله تعالى ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى**﴾ [طه: ٨٠]، ووراثتهم الكتاب والحكم والنبوة، في قوله تعالى ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ**﴾ [الجاثية: ١٦–١٧]،

---

(١) أما كونهم الأبرز فلأن الله سبحانه قد آتاهم الملك والحكم والنبوة والعلم، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ [الجاثية: ١٦–١٧] وهي أمور لم تجتمع لأمة قبلهم، وأما كونهم الأخطر فلما عرف عنهم من جرأتهم على الله سبحانه وتعالى–بوصفه سبحانه بما لا يليق بذاته– وعلى أنبيائه –بقتلهم وتكذيبهم– قال تعالى ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١].

(٢) ورد هذا المصطلح في القرآن الكريم إحدى وأربعين مرة في سبع عشرة سورة.

وذلك عكس المصطلحين الآخرين الذين يردان غالبا في سياق التوبيخ والعقوبة، كالتوبيخ بالحقد في قوله تعالى ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥] والحسد في قوله تعالى ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠٩] والكفر ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٧٠-٧١] وقتل الأنبياء في قوله تعالى ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥-١٥٧] والتجرؤ على الله سبحانه في قوله تعالى ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] ونحوه، وعليه فإن اختيار (بني إسرائيل) اسما آخر للسورة الكريمة التي معنا يناسب –بدلالته على التكريم– دلالة اسمها الأول (الإسراء).

# الفصل الأول

# المناسبات العامة في سورة الإسراء

**وفيــه أربعـة مباحث:**

## المبحث الأول

## العلاقة بين سورة الإسراء وما قبلها

تأتي سورة الإسراء في ترتيب التلاوة بعد سورة النحل، وترتبطان من وجوه، منها ما ذكره ابن الزبير الغرناطي قال: «لما تقدم قوله تعالى: ﴿**إِنَّ إِبْـرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾**﴾ (إلى قوله ﴿**ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْـكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا....**﴾ الآية، كان ظاهر ذلك تفضيل إبراهيم عليه السلام على محمدﷺ وعلى جميع الأنبياء لا سيما مع الأمر بالاتباع، فأعقب ذلك بسورة الإسراء وقد تضمنت من خصائص نبينا ﷺ وانطوت على ما حَصل من النصوص في الصحيح والمقطوع به والمجمع عليه من أنه ﷺ سيد ولد آدم فاستفتحت السورة بقصة الإسراء، وقد تضمنت حسبما وقع في صحيح مسلم وغيره إمامته بالأنبياء عليهم السلام وفيهم إبراهيم وموسى وغيرهما من الأنبياء من غير استثناء، وقد حصل منه تفضيله ﷺ بالاسراء وخصوصه بذلك.

ثم قد انطوت السورة على ذكر المقام المحمود، وهو مقامه في الشفاعة الكبرى، وذلك مما خص به حسبما ثبت في الصحيح، وانعقد عليه إجماع أهل السنة، ولا أعلم في الكتاب العزيز سورة تضمنت من خصائصه التي فضل بها كافة الأنبياء مثل ما تضمنت هذه السورة والحمد لله"[1].

(١) البرهان فى تناسب سور القرآن» (ص٢٤٣) باختصار.

ومن وجوه ارتباطهما ما ذكره البقاعي في نظم الدرر فقال: "لما كان مقصود النحل التنزه عن الاستعجال وغيره من صفات النقص، والاتصاف بالكمال لأنه قادر على الأمور الهائلة ومنها جعل الساعة كلمح البصر أو أقرب، وختمها بعد تفضيل إبراهيم عليه السلام والأمر باتباعه بالإشارة إلى نصر أوليائه –مع ضعفهم في ذلك الزمان وقلتهم– على أعدائه على كثرتهم وقوتهم، وكان ذلك من خوارق العادات ونواقص المطردات، وأمرهم بالتأني والإحسان، افتتح هذه بتحقيق ما أشار الختم إليه بما خرقه من العادة في الإسراء، وتنزيه نفسه الشريفة من توهم استبعاد ذلك، ... فقال تعالى: {سبحان} وهو علم للتنزيه، دال على أبلغ ما يكون من معناه»[(١)].

**قلت: ومن وجوه ارتباطهما كذلك أن في ختام سورة النحل إشارات لبني إسرائيل وما كان منهم، من هذه الإشارات قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا مَا قَصَصْنا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وهو إشارة إلى عقوبتهم بسبب اجترائهم على الله سبحانه مما يؤذن بتدني منزلتهم.**

**ومن هذه الإشارات ذكر حنيفية سيدنا إبراهيم عليه السلام مرتين، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً﴾ وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً﴾ ولعل في تكرار هذا الوصف هنا مبالغة في نفي علاقة اليهود به ﷺ وتكذيبهم في ادعاء يهوديته، ومن هذه الإشارات كذلك ذكر (السبت) في قوله تعالى (إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ) والذين اختلفوا فيه هم اليهود.**

**والإشارات الثلاثة تؤذن بتدني منزلة اليهود وإقصائهم عن محل التكريم الذي تبوأوه منذ زمن، ومن ثم تأتي سورة الإسراء مفتتحة بتنزيه الله سبحانه عن افتراءاتهم وادعاءاتهم واختلافاتهم.**

---

(١) «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٢٨٨/١١).

# المبحث الثاني

## علاقة اسمي السورة بموضوعاتها

تدور موضوعات السورة كلها حول قضية (التكريم)، وسيأتي توضيح ذلك في المبحث الرابع، والمتدبر في اسمي السورة الكريمة يجد أن لهما علاقة قوية بموضوع التكريم، وبيان ذلك:

**علاقة (الإسراء) بالتكريم:**

الإسراء مصدر أسرى، وأصله الثلاثي (سرى) وله عدة إطلاقات في اللغة، يعنينا منها في هذا المقام (السير ليلا، والشرف والفضل).

جاء في لسان العرب: السَّرْوُ: المُروءَةُ والشَّرَفُ، سَرْوَ يَسْرُو سَرَاوَةً وَسَرُوْا أَي صار سريًا، والسري: الأفضل، وسَرَاةُ المالِ خياره، الواحد سَرِيٌّ، وَالسَّرِيُّ المختار[1].

وجاء في لسان العرب والسُّرَى سَيرُ الليل عامته، وقيل: السُّرَى سير الليل كله[2]. والمعنيان يمكن إبرازهما من خلال آيات السورة الكريمة.

**<u>أما الإسراء بمعنى الارتفاع والفضل</u>** فالحديث عنه وارد في آيات السورة الكريمة إشارة وتصريحا على النحو التالي:

**– افتتاح السورة بتنزيه الحق سبحانه وتعالى، الذي يفعل ما يشاء، ويخلق ما يشاء، ويختار من يشاء، لا يوقفه زمان ولا يبعد عنه مكان ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** [الإسراء: ١].

---

(١) لسان العرب: (٣٧٧/١٤).

(٢) لسان العرب مادة سرى (٣٧٧/١٤).

– **ثم تكريم القرآن الكريم وتنزيهه عن الأباطيل في قوله تعالى** ﴿إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْـرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

– **ثم تمييز لبعض البشر على بعض بالإيمان في الدنيا والجنات في الآخرة** ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْـبَرُ تَفْضِـيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

– **وتمييز ومدح لبعض السلوكيات الفردية والاجتماعية مشفوعة بتقبيح سلوكيات أخرى في الآيات (٢٣: ٣٩) من قوله تعالى** ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا.... ﴾ [الإسراء: ٢٣] إلى قوله تعالى ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَـعَ اللَّهِ إِلَهًـا آخَـرَ فَـتُلْقَى فِي جَهَـنَّمَ مَلُومًـا مَدْحُورًا﴾.

– **ثم توجيه لانتقاء أفضل الكلمات وأطيبها في قوله تعالى** ﴿وَقُـلْ لِعِبَـادِى يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

– **واختصاص بعض الأنبياء بميزات منفردة، في قوله تعالى** ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥].

– **وإعلان لفضل البشر على الملائكة والجن في قوله تعالى** ﴿وَإِذْ قُلْنَـا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًـا ﴿٦١﴾ قَـالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦١–٦٢].

– **ثم التصريح** بالتفضيل والتكريم الذي اختص الله تعالى به بني آدم على ما في هذه الأرض من مخلوقات في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَـنِي آدَمَ وَحَمَلْنَـاهُمْ فِي

﴿الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

– ثم عقبه – بيان لتكريم المهتدين منهم الذين يؤتون كتابهم بيمينهم ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

– ثم –وفي إشارة متأنية– بيان لفضل سيدنا محمد ﷺ ومكانته، حين تحكي الآيات محاولات قومه المستميتة لإثنائه عن دعوته؛ لأنهم يشعرون أنه ﷺ بهذه الرسالة – أفضل منهم حالا وأعلى مقاما، وهو كذلك ﷺ ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ وحين ييأسون من ذلك، يستبد بهم الغضب ويحاولون طرده من بلده حتى لا يقال: إن في مكة من هو أفضل منهم: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ..﴾ وهكذا يفعل الحسد والحقد بنفس صاحبه؛ إنه لا يستطيع أن يرى شخصا أفضل منه يمشي على الأرض حتى يحاول بكل السبل أن يسلبه ما عنده أو أن يقضي تماما عليه.

– التصريح بمكانة سيدنا محمد ﷺ في الآخرة بعد الإشارة إلى مكانته في الدنيا ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ و(عسى) من الله سبحانه – لنبينا ﷺ للتحقيق لا للرجاء[1].

(١) قال الزركشي في البرهان: روى البيهقي في سننه عن ابن عباس قال كل (عسى) في القرآن فهي واجبة" وقال الشافعي: يقال عسى من الله واجبة، وحكى ابن الأنباري عن بعض المفسرين أن عسى في جميع القرآن واجبة إلا في موضعين في سورة بني إسرائيل: {عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ} يعني بني النضير فما رحمهم الله بل قاتلهم رسول الله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأوقع عليهم العقوبة وفي سورة التحريم: {عَسَى رَبُّهُ إن طلقكنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْرًا مِنْكُنَّ}، ولازمنه حتى قضى" انظر: البرهان في علوم القرآن – (٢٨٨/٤).

– ثم بيان لفضل الحق عمومًا على الباطل عمومًا ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

– ثم تذكير بفضل القرآن.. بيان أثره وبركته على المنتفعين به، وتأثيره ووقعه على الراغبين عنه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ يعقبه تأكيد على استحالة مشابهة – أو حتى مماثلة – أسلوبه: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ ويختم ببيان شموله لأحوال الناس وتلبيته لاحتياجاتهم، وأنه قد قطع على المعاندين الحجة في كفرهم وعنادهم: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾.

– ثم كشف لنفسية المعاندين الذين يحسبون أنهم على شيء، ويعيشون في وهم أنهم أفضل حالا؛ لأنهم أكثر من النبي ومن معه – عددًا ومالا، وبيان لسقف طلباتهم – المبالغ فيها التي يشترطونها لدخولهم في الدين: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾!.

– وهي صورة ناطقة بالارتفاع الزائف لدى هؤلاء، تنم – من بين سطورها عن ارتفاع حقيقي للنبي ﷺ ومن معه، كما تقدم.

– ثم بيان لفضل المهتدين عامة على الضالين عامة، وتفصيل لمآل الضالين الوخيم، يفهم منه –بمفهوم المخالفة– جزاء المهتدين الكريم ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَلِكَ

جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ويترك الحديث عن جزاء المهتدين لتذهب النفس فيه كل مذهب، ولينطلق خيالهم فيه إلى حيث يشاءون، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

**وأما الإسراء بمعنى السير ليلا** فدلالته تشمل الحركة الخفية التي لا تكاد تُعْرَفُ أو تلفت الأنظار، كما قال ﷻ : {والليل إذا يسر} {فأسر بعبادي ليلا}. وهذه الحركة بهذا التصور واضحة في السورة من أولها إلى آخرها..

- فأول ذلك التصريح بزمان الإسراء ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾
- ثم التعبير بخفية حركة العباد أولي البأس الشديد بقوله تعالى ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ [الإسراء: ٥]
- ثم وصف آية الليل بالمحو في قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: ١٢]
- ثم إشارة إلى علمه ﷻ بما تخفيه النفوس، في قوله ﷻ ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٢٥]
- ثم ذم لحركتين –إحداهما معنوية خفية، والأخرى ظاهرة مصحوبة بنية خفية– يبتلى بهما كثير من الناس، في قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .... ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٦–٣٧]
- ثم صورة من صور الإخفاء والتغطية تصيب الكفار حال قراءة القرآن، في قوله تعالى ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الإسراء: ٤٥–٤٦]
- ثم حديث عن عالم الرؤى وهو من العوالم الخفية، في قوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]

- ثم ذكر لحركة بني آدم في أصلاب آبائهم وتحريك السفن والأرض بهم وهم لا يشعرون بيد الله التي صنعت ذلك لهم وبهم.. {وحملناهم في البر والبحر}
- ثم فضح المؤامرة (الخفية) من المشركين لإخراج النبي من مكة، ولم يعلم النبي بتأمرهم، لولا أن الله أعلمه. (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها}.
- ثم الدعاء الخاص بموضوع الهجرة "الرحلة الخفية" والعودة إلى مكة "الوجهة الخفية" ﴿**وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا**﴾.
- ثم الحركة الخفية في التدافع بين الحق والباطل، وهي حركة طبيعية عند أي صراع؛ أن يتقدم أحد الطرفين ويتأخر الآخر {وقل جاء الحق وزهق الباطل}.
- ثم حركة الضمير الإنساني الذي يهش للنعم، ويضجر بالتقتير ﴿ **وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا**﴾.
- ثم التهديد بالذهاب بالوحي الخفي غالبًا" ﴿**ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك**﴾.
- والتأكيد على قضية الحركة الخفية " يمشون" مطمئنين".{قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين}.
- ثم في ختام السورة إشارة إلى أن الإخفاء ليس كله خير كما أن الإعلان كذلك، في قوله تعالى ﴿**وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا**﴾ [الإسراء: ١١٠].
- وأما علاقة الاسم الثاني (بني إسرائيل) بقضية (التكريم)فقد سبقت الإشارة إليه في التمهيد.

# المبحث الثالث

## علاقة بداية السورة بخاتمتها

**افتتحت السورة الكريمة بعدة أمور، أبرزها:**

تنزيه الله سبحانه وتعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وعد الله لبني إسرائيل ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤-٧].

الكلام عن بركة القرآن الكريم وأثره ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: ٩-١٠].

**وجاءت هذه الثلاثة في ختام السورة الكريمة**

تنزيه الله سبحانه وتعالى ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝١١٠ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١٠-١١١].

وعد الله لبني إسرائيل ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَامُوسَى مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠١-١٠٤].

الكلام عن بركة القرآن الكريم وأثره ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٥-١٠٩].

# المبحث الرابع

## المحور العام الذي تدور حوله السورة الكريمة

وبناء على ما سبق يمكن أن نقرر في وضوح أن موضوع سورة الإسراء الرئيس الذي تدور حوله هو **التكريم والتفضيل**، وبيان ذلك في عدة نقاط:

**أولاً: تكريم المسجد الأقصى وذلك من وجوه:**

**أولها:** جعله الله سبحانه نهاية رحلة الإسراء –التي حملت اسم السورة الأول– وبداية رحلة المعراج إلى السماوات، المشار إليها في الآية ذاتها في قوله تعالى (لنريه من آياتنا)، والآيات التي رآها النبي ﷺ كانت في المعراج كما جاء في حديث الإسراء الطويل في الصحيحين وغيرهما.

**ثانيها:** النص القرآني على بركة هذا البيت وما حوله بقوله تعالى (الذي باركنا حوله)، والضمير في (حوله) يعود لأقرب مذكور هو (المسجد الأقصى) فهو مكان مبارك، وما حوله مبارك، **ومعنى أن ما حوله مبارك** أي: «جعلنا حوله البركة لسكانه في معايشهم وأقواتهم وحروثهم وغروسهم»[(١)].

ومن بركة هذه الأرض أن جعلها الله تعالى أرض المحشر والمنشر: في بيت المقدس الأرض التي يُحشَر غليها العباد، ومنها يكون المنشر، فعن ميمونة بنت سعد مولاة النبي ﷺ قالت: يا نبي الله أفتِنا في بيت المقدس. فقال: «أرض المحشر والمنشر، ائْتُوهُ فَصَلُّوا فِيهِ»، وَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يُطِقْ أَحَدُنَا أَنْ يَتَحَمَّلَ إِلَيْهِ، قَالَ: «فَمَنْ لَمْ يُطِقْ أَنْ يَتَحَمَّلَ إِلَيْهِ، فَلْيُهْدِ إِلَيْهِ زَيْتًا يُسْرَجُ فِيهِ، فَإِنَّهُ مَنْ أَهْدَى إِلَيْهِ كَانَ كَمَنْ صَلَّى فِيهِ»[(٢)].

---

(١) تفسير الطبري جامع البيان، ط دار التربية والتراث» (٣٥١/١٧).

(٢) مسند إسحاق بن راهويه» (١٠٦/٥).

**أما مظاهر البركة فيه فكثيرة منها:**

أنه قبلة المسلمين **الأولى:** كانت القبلة إلى المسجد الأقصى لمدة ستة أو سبعة عشر شهرًا قبل نسخها وتحويلها إلى الكعبة بيت الله الحرام.

**وهو ثاني** مسجد وُضِع في الأرض: بعد المسجد الحرام؛ فعن أبي ذرﷺ قال: قلت يا رَسول اللهِ أي مسجد وُضِع في الأرض أولًا؟ قال: «المسجد الحرام»، قال: قلت: ثُمَّ أي؟ قال: «المسجد الأقصى»، قلت: كم كان بينهما؟ قال: «أربعون سنة ثم أينما أدركتك الصلاة بعدُ فصلّه، فإن الفضل فيه» (رواه البخاري). وإليه تُشَد الرحال: فقد أجمع أهل العلم على استحباب زيارة المسجد الأقصى والصلاة فيه، وأن الرحال لا تُشَد إلا إلى ثلاثة مساجد منها المسجد الأقصى؛ قال ﷺ: «لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى وَمَسْجِدِي هَذا».

والصلاة فيه أعظم أجرا وثوابا: فعند ابن حبان «عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: "أَنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ سَأَلَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ثَلَاثًا فَأَعْطَاهُ اثْنَتَيْنِ وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ قَدْ أَعْطَاهُ الثَّالِثَةَ سَأَلَهُ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ وسأله حكما يواطىء حُكْمَهُ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ وَسَأَلَهُ مَنْ أَتَى هَذَا الْبَيْتَ يُرِيدُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ لَا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ فِيهِ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهُ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ" فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "وَأَرْجُو أَنْ يكون قد أعطاه الثالث"[(١)]، وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِﷺ: «صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي بَيْتِهِ بِصَلَاةٍ، وَصَلَاتُهُ فِي مَسْجِدِ الْقَبَائِلِ بِخَمْسٍ وَعِشْرِينَ صَلَاةً، وَصَلَاتُهُ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي يُجَمَّعُ فِيهِ بِخَمْسِ مِائَةِ صَلَاةٍ، وَصَلَاتُهُ فِي الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى بِخَمْسِينَ أَلْفِ صَلَاةٍ، وَصَلَاتُهُ فِي مَسْجِدِي بِخَمْسِينَ أَلْفِ صَلَاةٍ، وَصَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ بِمِائَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ»[(٢)].

---

(١) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان» (٥١١/٤) بَابُ الْمَسَاجِدِ- ذِكْرُ رَجَاءِ خُرُوجِ الْمُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ.

(٢) سنن ابن ماجه» (٤٥٣/١ ت عبد الباقي) كِتَابُ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَالسُّنَّةُ فِيهَا بَابُ مَا جَاءَ فِي الصَّلَاةِ فِي الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ.

ثالثها: جعله الله سبحانه محل تنافس بين الأمم، وقضى به –جائزة– للأمة المسلمة متى كانت أصلح حالا من سابقتها، وما ذاك إلا لشرفه وكرامته عند الله، فبنو إسرائيل حازوه حين كانوا كراماً على الله، وحين حادوا عن الجادة أخذه الله من أيديهم فجعله في أيدي عباد مكرمين، وهكذا تتعاقب الأمم عليه بأمر الله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾.

وبعيدا عما اختلف فيه المفسرون من زمن المرتين وكيفية حدوثهما، يبقى القدر المتفق عليه في الآيات التأكيد على قيمة المسجد الأقصى بجعله في حيز (الجائزية) فمتى صلح العباد في زمان ما كانت حيازة المسجد الأقصى مكافأة وجائزة لهم، ومتى تنكبوا الطريق وحادوا عن الحق كان إبعادهم عن المسجد الأقصى وجعله في ايدي عدوهم عقوبة لهم.

فقد كان المسجد الأقصى تحت حكم بني إسرائيل أيام صلاحهم، فلما أفسدوا –وكانوا مسلمي هذا الزمان– عاقبهم الله بسلب المسجد الأقصى منهم. ولما انصلح حال بني إسرائيل وعادوا إلى دينهم كافأهم الله وأعاد لهم المسجد الأقصى في حوزتهم ثم لما أفسدوا مرة أخرى عاقبهم الله بسلب المسجد الأقصى منهم، وظل معهم حتى جاءت شريعة الإسلام مع نبينا محمد ﷺ فكان أتباعه هم الأمة المسلمة.. فإن صلحت أعطاها الله حيازة المسجد الأقصى (جائزة ومكافأة) ومتى ابتعدت عن النهج كانت العقوبة سلب المسجد الأقصى منهم وجعله في ايدي

أعدائهم، وهكذا سارت أحداث التاريخ منذ عهد عمر بن الخطاب ﷺ، ومرورا بصلاح الدين، وصولا إلى عصرنا هذا، حيث نرى ما نحن فيه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

**ثانيا: تكريم القرآن وحامليه والعاملين به:**

وبرز ذلك من وجوه في عدة مواطن في السورة الكريمة، أول ذلك: بيان قوامة هذا القرآن على المنهج وعلى الناس جميعا ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ٩ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: ٩-١٠].

**وثاني ذلك:** تقرير أنه المرجعية الأولى والأهم للعقل والفهم والإرشاد المجتمعي عند الناس، قال تعالى ﴿**ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ**﴾ [الإسراء: ٣٩] وقوله تعالى ﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا**﴾ [الإسراء: ٤١] وقال ﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا**﴾ [الإسراء: ٨٩].

**وثالثهما:** إثبات هيبة القرآن وكونه حاميا ومدافعا عن حامليه، قال تعالى ﴿**وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ۝٤٥ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا**﴾ [الإسراء: ٤٥-٤٦].

**ورابعها:** إثبات أثر القرآن وبركته لقارئيه وسطوته وقوته على شانئيه، قال تعالى ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا**﴾ [الإسراء: ٨٢].

**وخامسها:** إثبات مكانة القرآن العلية التي تستعصي على التقليد والمحاكاة مهما بلغت قوة المعارضين وعددهم، قال تعالى ﴿**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ**

عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]

**ثالثًا: تكريم المجتمع المسلم:**

عن طريق إقرار الفضائل فيه، ومنع الرذائل عنه، وبداية ذلك التكريم المستحق هو وجود الرغبة الصادقة – لدى الأفراد – في تحقيق الكرامة ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُمِدُّ هؤلاء وهؤلاء مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ ثم نظرة عامة على المجتمع المكون من هؤلاء الأفراد، وذلك في قطاع عريض من الآيات تجاوز العشرين آية ، بدءا من قوله ﷻ ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴿٢٢﴾ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. ﴾ إلى قوله ﷻ ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾.

**رابعا: تكريم الله للبشر على الجن:**

بعرض جانب من قصة آدم عليه السلام مع اللعين إبليس، مع التركيز في هذا السياق على لفظ "التكريم" – الذي لم يرد في موضع آخر من قصة آدم وإبليس في القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرتن إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ

بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾.

**خامسا: تكريم الله للمسلمين على اليهود خاصة:**

وذلك في مطلع السورة وختامها قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: ٥-٧] وقال تعالى ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤].

**سادسا: تكريم الله للإنسان، لكونه إنسانًا:**

مؤمنًا كان أو كافرًا في جميع أحواله من الشدة والرخاء، والمرض والصحة، والحاجة والغنى إلخ، واستغرق هذا الجانب جزءًا كبيرًا من الآيات منها قوله تعالى ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣-١٤] وقوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١] وقوله تعالى ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ

وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

**الخطان الأساسيان في السورة**

كل هذا التكريم يسير في خطين رئيسين –كأن آيات السورة تصر على إبرازهما– هما: تمجيد الوحي "رسولًا ورسالة، وتنزيه الله سبحانه، وكلاهما بارز في ثنايا السورة من أولها حتى آخرها.

**أما تمجيد الوحي (رسولا ورسالة)**

فيتجلى من خلال:

**أولا: وصف الوحي عموما بأنه هدى**، سواء كان وحيا لموسى أو لداود أو لمحمد أو لغيرهم عليهم جميعا الصلاة والسلام: قال تعالى ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، وقال تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، وقال تعالى ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾، وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾، وقال تعالى ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾، وقال تعالى ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾، وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي

**لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا ﴿١٠٢﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾.**

**ثانيا: كثرة التصريح بمادة الوحي،** و(الكتاب) –الذي هو أحد لوازم الوحي– وكذلك الآيات –سواء كانت بمعنى المعجزة أو المقروءة– إذ وردت ثلاثتها ثمان عشرة مرة بمعان مختلفة.

**ثالثا: بيان ضرورة الوحي للخلق جميعا** –كل بما يتناسب معه– وأن الخلق لا يستطيعون الحياة على الأرض راشدين دون أن يكون لهم مدد من السماء ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾، ووصفه –تأكيدا لذلك– بأنه الروح ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ [الإسراء: ٨٥] ومجيء هذه الآية معترضة في ثنايا الحديث عن القرآن الكريم –آخر الوحي السماوي إلى الأرض– يشير إلى تلازم بين أهمية الروح والوحي، فالروح سر الحياة في الانسان، والوحي –الذي هو روح[1] أيضا– سر الحياة في المجتمع.

**رابعا: دفع شبه الكفار على الوحي،** حيث اتهموا النبي بأنه مسحور بسبب ما يجري عليه من أعراض حين ينزل عليه القرآن ﴿**نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٤٧﴾ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا**﴾ [الإسراء: ٤٧–٤٨].

**خامسا: بيان كرامة وحي السماء مقارنة بوسوسة الشياطين،** فالوحي يصل ما بين الناس، والشيطان يقطعها.. ﴿**وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا**﴾ [الإسراء: ٥٣] والتمسك بالوحي

---

(١) قال تعالى في حق أمين الوحي ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] وقال تعالى في حق القرآن الكريم ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] وقال في حق الوحي عامة ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥]

يعصم العباد من الوقوع في حبائل الشيطان ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥].

**وأما تنزيه الله ﷻ فيتجلى في غير مشهد في أثناء السورة، على النحو التالي:**

**أولا:** تنزيه الله تعالى لنفسه في مطلع السورة: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾.

**ثانيًا:** النهي عن الشرك: قال تعالى ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ۝٢٢ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾، ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾، ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٣ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

**ثالثا:** إثبات علمه سبحانه بكل صغيرة وكبيرة: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾، ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾، ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

**رابعا:** إثبات حاجة الخلق كلهم – بما فيهم المعبودات التي تعبد من دون الله – إليه سبحانه ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾.

**خامسا:** تفرده سبحانه بعلم ما لا يعلمه أحد من الخلق ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

**سادسا:** إثبات قدرته ﷻ المطلقة على الخلق بدءًا وإعادةً ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِى

فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾.

**سابعا:** وفي مشهد رائع يظهر إعلان الصفوة من الخلق استسلامهم وخضوعهم لقدرة الله وقوته: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾.

**أخيرا:** إعلان استغنائه –ﷻ– عن عبادة من كفر به، وتوجيه الموحدين له إلى ضرورة اللجوء إليه والاعتماد عليه وتنزيهه – سبحانه عن كل ما لا يليق: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا سبحانه وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾.

# الفصل الثاني: المناسبات في آيات السورة

## الصور الجمالية في آيات السورة الكريمة

**الحديث عن "الصورة يلزمنا أن نشير أولاً إلى مفهوم البلاغة:**

وهي: «تأدية المعنى الجليل واضحًا بعبارة صحيحة فصيحة، لها في النفس أثر خلاب مع ملاءمة كل كلام للموطن الذي يُقالُ فيه، والأشخاص الذين يُخاطبون. فعناصر البلاغة إذًا لفظ ومعنى وتأليف الألفاظ يَمْنَحُها قُوةً وتأثيرًا وحُسْنًا. ثم دقةٌ في اختيار الكلمات والأساليب على حسب مواطن الكلام ومواقعه وموضوعاته، وحال السامعين والنزعة النفسية التي تتملَّكهم وتُسَيْطِرُ على نفوسهم"[1].

وهي ذروة سنام العربية ولبها وتاجها وجوهرها، وقد عدها العلماء علما قرآنيًا؛ لأن نشأتها أساسا كان في أحضان فهم التنزيل، وإدراك أسباب الإعجاز، ومعرفة طرقه ومسالكه.

يقول العلامة الدكتور محمد حسين الذهبي: " اشترط العلماء في المفسر الذى يريد أن يُفسر القرآن برأيه بدون أن يلتزم الوقوف عند حدود المأثور منه فقط، أن يكون ملما بجملة من العلوم التي يستطيع بواسطتها أن يُفسر القرآن تفسيرًا عقليًا مقبولاً، وجعلوا هذه العلوم بمثابة أدوات تعصم المفسِّر من الوقوع في الخطأ، وتحميه من القول على الله بدون علم... إلى أن قال الخامس والسادس والسابع – علوم البلاغة الثلاثة "المعاني، والبيان، والبديع": فعلم المعاني يُعرف به خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى، وعلم البيان، يُعرف به خواص التراكيب من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها، وعلم البديع، يُعرف به وجوه تحسين

(١) البلاغة الواضحة (ص (١٢).

الكلام. وهذه العلوم الثلاثة من أعظم أركان المفسر؛ لأنه لا بد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز، وذلك لا يُدرك إلا بهذه العلوم"[١].

ويخطئ البعض حين يقصر الجمال البلاغي في القرآن الكريم على مجرد الهياكل اللفظية القائمة؛ لأن العرب كانوا أرباب فصاحة وبيان، وقد تحداهم القرآن أن يأتوا بمثله أو بجزء منه فأعجزهم ذلك، والذي أعجزهم ليس مجرد اختيار الألفاظ الفصيحة، إنما وضعها في مواضعها، وتركيبها في جمل ثم إضافة بعدٍ آخر وراء ذلك كله، ألا وهو جمال البنيان ككل.

**لذلك أقول:** إنه لا يصح قصر الصورة "البلاغية على هذه الصور "الشكلية" للألفاظ، من جناس، واستعارة، وتشبيه، وطباق.. إلخ، فكل هذه "الشكليات" ليست سوى مفاتيح لجمال مستكن في المعاني وراءها، وما أسهل أن يؤلف الإنسان نظما شعرا أو نثرا" مليئًا بهذه المحسنات" اللفظية ! لكن أين نصيب الجمال الحقيقي "جمال الصورة" من هذه المحسنات ؟ لذلك فإن على الباحث عن جمال القرآن من خلال الصورة البلاغية – أو الصورة الجمالية – أن يهتم بوجهه ناحية أمور عدة:

**أولها: النظم التعبيري:** وأعني به اختيار لفظ دون آخر في مكان ما، واختيار اشتقاق دون آخر في تعبير ما، وتضمين بعض الألفاظ لبعض، ورعاية فاصلة معينة دون أخرى ونحو ذلك مما يتعلق بالمفردات، مما يعرف عند البلاغيين ب (البديع) وهو يتناول فنونا عدة، أشهرها الجنّاسُ، وَالاقْتِبَاسُ، وَالسَّجْعُ والتورية، والطباق، والمقابلة، وحُسنُ التعليل، وتأكيدُ المدح بما يُشْبِهُ الذَّمَّ، وأُسلوب الحكيم.

**وثانيها: النظم التركيبي،** وهو النظر في نظم كل جملة على حدتها بحسب تركيب أجزائها، هل قدم فيها ما يستحق التأخير أو العكس ؟! هل أظهر فيها ما يستحق الإضمار أو العكس؟! هل حذف منها ما يستحق الذكر أو العكس ؟! هل يوجد بها مؤكدات لا تحتاجها، أو خلت من مؤكدات كانت تحتاجها ؟!! وكلها

(١) التفسير والمفسرون – د. محمد حسين الذهبي – (٤٤/٤).

مسائل لا ترد إلى النصوص الظاهرة، إنما ترد إلى المعاني الخفية الباطنة. وهذا يعرف عند البلاغيين ب (علم المعاني).

**وثالثها: النظم الترتيبي**، وهو النظر في علاقة كل جملة – داخل الآية الواحدة – بأخواتها، والنظر في علاقة كل آية بجاراتها، ثم النظر في علاقة كل سورة بما حولها، وهو ما يسميه البلاغيون "الفصل والوصل"، وهو أحد فروع علم المعاني، وقوامُ علم كبير من علوم القرآن يسمى "علم التناسب"، وبه يُكتَشفُ جمال القرآن، وتظهرُ العلاقة بين أجزائه، على رغم تباعدها في زمان النزول ومكانه، وتفاوتها في أسباب النزول، واختلافها في موضوعاتها التي تتناولها. حتى بالغ بعضهم فقال: البلاغة معرفة مواطن الفصل والوصل في الكلام"[1].

**ورابعها: النظم الإجمالي للسورة** وبيان وحدتها الموضوعية ومقاصدها الأساسية؛ إذ إن كل سورة تمثل شخصية مستقلة تشترك في بعض صفاتها مع أخواتها سور القرآن)، وتنفرد بصفات خاصة بها لا توجد عند الأخريات.

**فالأصل في الجمال البلاغي** النظر في اختيار اللفظ، ثم في تركيبه مع أخر في جملة، ثم في الترتيب بين هذه الجملة وبين جاراتها، ثم في الصورة العامة لكل هذه الجمل ومدى ارتباطها بموضوع الكلام الأصلي.

**الجمال في خواتيم الآيات**

ما أعتقده يقينا أن كل حرف –بل كل صوت ورسم وحركة– من كتاب الله وضع ليفيد معنى لا يفيده غيره في سياقه، وهذا الاعتقاد يحملني على النظر في خواتيم الآيات من الأصوات والحروف قبل الكلمات، وكلما أمعنت النظر في شيء من هذا لاحت لي في السورة الكريمة بعض اللطائف والأسرار – التي لا أراها ملزمة ولا قاطعة – التي يدهش لها العقل.

(١) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها – (٥٧٢/١).

ولعلي قد استوفيت الكلام في الصفحات السابقة عن جمال التعبير في السورة، وسأقتصر في الصفحات التالية على ربع (ولقد كرمنا) للكلام عن جمال الصورة ؛ نظرا لبروز معنى التكريم في هذا الجزء من السورة أكثر من غيره، تاركا بقية آيات السورة الكريمة للقارئ ليتذوق بنفسه –وعلى النسق ذاته– صور الجمال فيها.

## الفقرة الأولى [٧٠–٧٢]: التكريم العام والتكريم الخاص

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

**المعنى العام للآيات:**

تتحدث الآيات عن تكريم الله ﷻ لعباده إجمالا بأن حملهم في البر والبحر، ورزقهم من فضله، وفضلهم على كثير من خلقه، ثم عن تكريم خاص يقع في الآخرة – للمؤمنين به؛ إذ تتبع كل أمة معبودها أو قائدها، فلا يتحرك المؤمنون آنذاك إلا إلى ربهم أما الكافرون فلا يكادون يبصرون شيئا في الآخرة، كما كان حالهم في الدنيا؛ من الإعراض عن آيات الله والصد عنها.

**الصور البلاغية:**

**الصورة الأولى: ترتيب المتعاطفات في الآية:**

المتعاطفات في الآية: قوله ﷻ (كرمنا) و(حملناهم) و (رزقناهم) و(فضلناهم)، والثلاثة الأخيرة تفصيل للفعل الأول فهي من عطف الخاص على العام، وإنما وردت هذه الثلاثة بعده بهذا الترتيب – تبعًا لترتيب ذكرها في السورة، فقد ورد الحديث عن حمل بني آدم في أول السورة قال تعالى: ﴿**ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ**

﴿نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[1]. وهذا عن الحمل في البحر على أن حادث الإسراء المذكور في أول آية من السورة قد وقع فيه حمل النبي ﷺ في البر، ولا شك أن تكريم النبيﷺ بهذا الحمل هو تكريم لجنس البشر عمومًا ولأمته –صلى الله عليه وسلم– على وجه الخصوص.

وكان الحديث عن الرزق من الطيبات ثانيًا في غير موطن قال –سبحانه وتعالى– ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾[2] وقال ﷻ ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[3]. وقال ﷻ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾[4]، وقال ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾[5].

ثم كان آخر ما ذكر من وجوه التكريم في الآية: التفضيل وقد ذكرت السورة صوراً منه، فمنه تفضيل بعض الناس على بعض كما قال –سبحانه وتعالى–: ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾[6].

ومنه تفضيل بعض النبيين على بعض كما قال –سبحانه وتعالى– ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾[7].

ومنه تفضيل البشر على غيرهم من الجن والإنس وهو المقصود في الآية كما ذهب المحققون من أهل التفسير وغيرهم كما قال –سبحانه وتعالى– ﴿وَإِذْ قُلْنَا

(١) سورة الإسراء: آية ٣.
(٢) سورة الإسراء: آية ٦.
(٣) سورة الإسراء: آية ٢٠.
(٤) سورة الإسراء: آية ٣٠.
(٥) سورة الإسراء: آية ٣١.
(٦) سورة الإسراء: آية ٢١.
(٧) سورة الإسراء: آية ٥٥.

لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾[1].

فتفضيل البشر على الملائكة واضح من أمر الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام، وتفضيل البشر على الجن واضح من اعتراف إبليس نفسه به حين قال لربه: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾؛ يشير إلى أبينا آدم فكأن الجمل الفعلية المتعاطفة في الآية والتي هي كالتفصيل لمفردات هذا التكريم المذكور في أولها، كأنها مذكورة بحسب الإشارة إليها في سياق السورة، فما ذكر أولا في سياق السورة ذكر أولا في سياق الآية؛ والله تعالى أعلم.

## الصورة الثانية: "بني آدم"... لا البشر

أول ما يستوقفنا من الصور البلاغية في آيات الربع، هو التعبير ب (بني آدم)، حيث آثر القرآن التعبير ببني آدم لا البشر ولا الناس، رغم ورود هذه الصيغ في القرآن الكريم كثيرا.

يتساءل القارئ: ما سر التعبير هنا ب (بني آدم رغم أن أفراد (بني آدم) هم أفراد (البشر) وأفراد (الناس) ؟

**والجواب في نقاط:**

تشترك الألفاظ الثلاثة في أنها تدل على ذلك المخلوق المكرم المسمى (إنسان) دون نظر إلى دين أو لون أو نوع.

المتتبع لآيات القرآن يجد أن القرآن الكريم استعمل كل لفظ من الثلاثة في سياقه لغرض معين، لا يقوم غيره مقامه.

يختص كل لفظ من هذه الألفاظ بمعنى زائد لا يوجد في صاحبيه؛ فكلمة (البشر) تشير إلى طبيعة الخلق، جاء في لسان العرب: {البَشَرَةُ أعلى جِلْدَةِ الْوَجْهِ

(١) سورة الإسراء: آية ٦١، ٦٢، ٦٣.

وَالْجَسَدِ من الإنسان، ويُعنى بهِ اللَّوْنَ وَالرَّقَةُ، وَمِنْهُ اشْتَقَّتْ مُباشَرَةُ الرَّجُل المرأة لتضامٌ أَبْشارهما. والبَشَرَةُ والبَشَرُ: ظَاهِرُ جِلْدِ الإنسان؛ وفي الأثر: " لَمْ أَبْعَثْ عُمَّالي ليضربوا أبشاركم "[1]،[2]؛ لذلك نجد القرآن يؤثر التعبير ب (البشر) حيث كان الغرض بيان طبيعة خِلْقِة هذا المخلوق وهيئته، قال: ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾؛ يقصدن أن هذا الجمال لم يعهدنه في هيئات البشر.

وقَالَ –سبحانه وتعالى–: ﴿**فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا**﴾[3]، أي: تحول لها عن هيئة الملائكة إلى هذه الهيئة المعروفة لديها للبشر.

وقال –سبحانه وتعالى– ﴿**وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا**﴾[4]، أي: جعله في هيئة من الخلقة الحسنة الوضيئة، يستطيع بها أن يتكاثر ويقيم علائق اجتماعية.

وقال –سبحانه وتعالى– ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَاب ثُمّ إِذَا أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ**﴾[5] أي: كان خلقكم على هيئة معينة من تراب ثم تكاثرتم على الهيئة

---

(١) جزء من حديث موقوف على أمير المؤمنين عمر، أخرجه أحمد في مسنده وأبو داود في سننه وهذا لفظه، والبيهقي في السنن الكبرى عَنْ أبي فراس، قَالَ: خَطَبَنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: (إِنِّي لَمْ أَبْعَثْ عُمَالِي لِيَضْرِبُوا أَبْشَارَكُمْ، وَلَا لِيَأْخُذُوا أَمْوَالَكُمْ، فَمَنْ فعِلَ بِهِ ذلِكَ فَلْيَرْفَعْهُ إِلَيَّ أَقِصُّهُ مِنْهُ، قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: لَوْ أَنَّ رَجُلًا أَدَبَ بَعْضِ رَعِيَّتِهِ أَتُقِصُّهُ مِنْهُ؟ قَالَ: إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ أَقِصُّهُ، وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقْصَ مِنْ نفسه») انظر: مسند أحمد – الرسالة – (٣٨٤/١)

وسنن أبي داود – (٤ / ١٨٣) كتاب الديات باب القودِ مِنَ الضَّرْبَةِ وقص الأمير مِنْ نَفْسِهِ. حديث رقم ٤٥٣٩، والحديث ضعيف.

(٢) لسان العرب – (٦٠/٤) باب الراء فصل الباء الموحدة.

(٣) سورة مريم:آية ١٧.

(٤) سورة الفرقان:آية ٥٤

(٥) سورة الروم: آية ٢٠.

ذاتها وقال: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ ص: ١] أي: خالق خلقا على هيئة معلومة بصفات معينة.

ولذلك أتى التعبير ب (ملكا رسولًا) في مقابل (بشرًا رسولًا) في الآيتين (٩٤، ٩٥) من السورة.

وكلمة (الناس) لا تشير إلى هيئة ذلك المخلوق، إنما تشير إلى صفة أساسية فيه، وهي أنه ينسى(١)، أو يأنس بمن حوله(٢)؛ ولذلك يكثر استعمال (الناس) في مقام التذكير بما ينبغي أن يكونوا عليه، كما قال –سبحانه وتعالى– ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(٣)، فالفعل (تنسون) مناسب لدلالة (الناس)، وقال–سبحانه وتعالى–﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(٤)، والفعل (يتذكرون) مناسب لدلالة (الناس)، وقال –سبحانه وتعالى– ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾(٥) والضلال، الدال عليه لفظ (يضل) مناسب للنسيان الموجود في دلالة (الناس).

أما كلمة (بني آدم) فتذكر لتدل على أمرين: رد الناس كلهم إلى أصل واحد وتذكيرهم به، وتكريم المخاطبين بذكر أبيهم الذي كرمه الله –ﷻ– فخلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه الأسماء كلها.. كما قال –ﷻ–: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ

---

(١) رُوِيَ عَن ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ الله عَنْهُمَا، أَنه قَالَ: إنما سُمِّيَ الإنسان إنساناً لأنه عُهِدَ إليه فنسي. رواه الطبراني في المعجم الصغير – وقال: لم يروه عن مسعر إلا أبو أحمد تفرد به أحمد بن عصام انظر: المعجم الصغير الطبراني – (٢ / ١٤٠)

(٢) جاء في لسان العرب: "والأنس: خِلافُ الوَحْشَةِ، وَهُوَ مَصْدَرُ قَوْلِكَ أَنِسْتُ بِهِ، بِالكَسْرِ، أَنَساً وأنسة؛ قَالَ: وَفِيهِ لغة أخرى أنسْتُ بِهِ أنساً مِثْلَ كَفَرْتُ بِهِ كُفْراً. قَالَ: والْأَنْسُ وَالِاسْتِئْنَاسُ هُوَ التَّأَنُّسُ، وَقَدْ أَنِسْتُ بِفُلان. لسان العرب – (٦ / ١٢) باب السين فصل الألف.

(٣) سورة البقرة: ٤٤.

(٤) سورة البقرة: ٢٢١

(٥) سورة الأنعام: ١٤٤.

مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٣٥﴾ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾[1].

إن الآيتين تحملان تكريما لبني آدم، وتحذيرًا لهم من عدوهم، وقال –سبحانه وتعالى– ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[2] وقال –سبحانه وتعالى– ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3]، وهما أيضا في مقام التكريم!.

فإذا ما عدنا إلى الآية التي معنا وجدناها لا تقصد إلى الحديث عن هيئة هذا المخلوق، ولا عن صفاته، إنما تتحدث عن تكريم الله تعالى له؛ فلابد إذا من ذكر أول من وقع له التكريم من جنس البشر، ولا بد من نسبتهم إليه فكان التعبير ب (بني (آدم) دون سواها. والله تعالى أعلم.

**الصورة الثالثة: بإمامهم**

الإمام في القرآن على أربعة أوجه:

**أولها:** بمعنى القائد، قال الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، أي: قائدًا في الخير مقتدى بك.

**والثاني:** الكتاب، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾، أي: بكتابهم الذي فيه أعمالهم. وقيل: بداعيهم الذي دعاهم إلى الهدى أو الضلالة. وقيل: بدينهم. والثالث: قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾، يعني: اللوح المحفوظ، والأخير الطريق قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾. أي بطريق واضح: تمرون عليها في أسفاركم، يعني: القريتين المهلكتين؛ قوم لوط وأصحاب

(١) سورة الأعراف: ٢٦، ٢٧.
(٢) سورة الأعراف: ٣١.
(٣) سورة الأعراف: ٣٥.

الأيكة[١]، وقد نقل (الماتريدي) رحمه الله وغيره اختلاف المفسرين في المراد بالإمام هنا، فقال: "اختلف في قوله: (بإمامهم).

قَالَ بَعْضُهُمْ: ندعو بإمامهم، أي: بدينهم الذي دانوا به وذبوا عنه، ويُدعى كل بدينه الذي دان به وذب عنه ، وقَالَ بَعْضُهُمْ (بإمامِهِمْ)، أي: برؤسائهم وأئمتهم الذين أضلوهم، أي: يدعى الأتباع بأئمتهم ورؤسائهم الذين أضلوهم حتى يلوم بعضهم على بعض، ويلعن بعضهم على بعض، ويتبرأ بعضهم من بعض؛ كقوله: ﴿**إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا...**﴾ الآية، وقوله: ﴿**وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا**﴾، وقوله: ﴿**يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ**﴾، يدعى الأتباع بالمتبوعين. ، وقَالَ بَعْضُهُمْ: يدعى كل أناس بداعيهم الذي دعاهم: إن كان رسولا فبالرسول، وإن كان شيطانا فبالشيطان، وهو قريب من السابق، وقَالَ بَعْضُهُمْ (بإمامهم): كتابهم الذي كتب الملائكة أعمالهم فيه ، وقَالَ بَعْضُهُمْ: يدعى بكتابهم الذي أنزل عليهم، يدعى كل بما ذكر؛ ليعلموا أن الحجة قد قامت عليهم، ووجب لهم العذاب باتباعهم ما اتبعوا بلا حجة ولا برهان. وحاصل أقاويل هؤلاء ترجع إلى وجوه ثلاثة: **أحدها:** يوم ندعو إمام كل أناس كان إمامهم في خير أو شر فيجزى له جزاؤه، ثم يكلف هو دعاء أتباعه إلى ما أعد لهم من الثواب والعقاب.

**والثاني:** يدعى كل إمام ورئيس في خير أو شر بأتباعه الذين يتبعونه فيما يدعوهم إليه نحو كل رسول يدعى بقومه الذين اتبعوه، وكل رئيس وشيطان استتبعهم.

**والثالث:** (بإمامهم): كتابهم الذي كتب لأعمالهم الذي كتبوا؛ كقوله: ﴿**وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا**﴾، ونحوه"[٢].

والملاحظ لهذا الكلام يجد اتساع مدلول كلمة (إمام) لتشمل كل ما يمكن أن

(١) الوجوه والنظائر لأبي هلال العسكري "بتصرف" (١ / ٢٨)

(٢) تفسير الماتريدي – تأويلات أهل السنة – (٧ / ٨٨)

يكون (إمامًا) سواء كان معبودا، أو قائدًا، أو كتابًا موحى به، أو كتابًا مُحصِيًا لأعمالهم، فلو عبر القرآن بأحد هذه المعاني دون الآخر للزم أحد أمرين: إما التنصيص على سائر المعاني الأخرى؛ ومن ثم تطول الآية طولا يخرجها عن الذوق البلاغي، وإما عدم التنصيص على المعاني الأخرى، والاكتفاء بما ذكر؛ ومن ثم يتناقض القرآن، في هذه الآية، مع آيات أخرى منه، ومع صحيح السنة التي أشارت إلى أن كل إنسان يدعى بمعبوده(١)، أو برسوله(٢)، أو بقائده(٣)، أو بكتابه المنزل على رسوله(٤)، أو بكتاب أعماله(٥) فإذا كانت البلاغة الإيجاز مع

(١) عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن تتبع كل أمة ما كانت تعبد فلا يبقى من كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله بر أو فاجر وغبرات أهل الكتاب فيدعى اليهود فيقال لهم من كنتم تعبدون قالوا كنا نعبد عزير ابن الله فيقال لهم كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد فماذا تبغون فقالوا عطشنا ربنا فاسقنا فيشار ألا تردون فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضا فيتساقطون في النار ثم يدعى النصارى فيقال لهم من كنتم تعبدون قالوا كنا نعبد المسيح ابن الله فيقال لهم كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد فيقال لهم ماذا تبغون فكذلك مثل الأول... [البخاري (٦/٤٤) كِتَابُ التَفْسِيرِ بَابُ قَوْلِهِ: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ}.

(٢) عن عبد الله ﷺ عن النبي ﷺ قال: أنا فرطكم على الحوض وليرفعن معي رجال منكم ثم ليختلجن دوني فأقول يا رب أصحابي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك» صحيح البخاري – طوق النجاة – (٨/١١٩) كِتَابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ بَابُ {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا}

(٣) كما قال –سبحانه وتعالى– في حق فرعون: {يَقدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الوِرْدُ الْمَوْرُودُ} [هود: ٩٨] )

(٤) عن جبير بن نفير قال: سمعت النواس بن سمعان يقول سمعت النبي ﷺ يقول: (يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران وضرب لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد قال كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق أو كأنهما حزقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما) ( صحيح مسلم – عبد الباقي – (١/٥٥٤) كِتَابُ صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا بَابُ فَضْلِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَسُورَةِ الْبَقَرَةِ.

(٥) قال ﷻ: {وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ} [الحجر: ٤] وقال ﷻ: { كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا} [الجاثية: ٢٨] وقال ﷻ: {كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الفُجَّار لفِي سجين} [المطففين: ] وقال ﷻ: {كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَار لَفِي عِلِيّينَ} [المطففين: ١٨]

الوفاء بالمعنى، فقد وفت هذه الكلمة (بإمامهم) بالبلاغة من كل وجه

**الصورة الرابعة: فمن أوتي كتابه.. فأولئك يقرءون كتابهم.**

نحن في هذه الآية أمام زمرة من الصور الجمالية:

فأول ذلك: التعبير في النصف الأول من الآية بالمفرد (فمن، أوتي، كتابه)، وفي النصف الآخر بصيغة الجمع (فأولئك، يقرءون، كتابهم).

والثاني: أنه لم يذكر جزاء من أوتي كتابه بيمينه.

أما الصورة الأولى فهناك سؤال يطرح نفسه: لماذا راعى لفظ (من) في الجملة الأولى، وراعى معناها في الجملة الأخرى ؟ والجواب: إن أخذ الكتاب –كتاب الأعمال – يختص به كل واحد؛ لأن المسئولية عن الأعمال مسئولية فردية، فإن كان عمله صالحًا فرح واستبشر وأذاع في الناس، ففرح له الجميع، كما يكون حال الطالب في آخر العام؛ إن كان من الناجحين أذاع الخبر بين أهله وأصحابه، من يعرف ومن لا يعرف، فالنتيجة نتيجته هو؛ لأن الامتحان كان له هو، أما الفرح بنتيجة العمل فليست خاصة به، بل إنه يحرص على مشاركة من حوله له في فرحته، على عكس الحال في ذلك الطالب الذي خاض الامتحان ذاته، لكنه وجد نتيجته سيئة آخر العام، فإنه لا يذيع عن نفسه هذا الأمر، وبالتالي يحمل همه وحزنه وحده، يقول –سبحانه وتعالى– ﴿**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ**﴾[1]،﴿**وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ**﴾[2].

ويقول –ﷻ – ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُو**

(١) سورة الحاقة: ١٩.

(٢) سورة الحاقة: ٢٥ –٢٦– ٢٧.

﴿ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾[1].. فلما كان الأمر في (إيتاء الكتاب) أمرًا سريًا خاصا عبر بالفرد، ولما كان الأمر في الفرحة (بنتيجة الكتاب) أمرًا معلنًا عامًا عبر بالجمع.

**يقول الخازن رحمه الله:** "فإن قلت: لم خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم، مع أن أصحاب الشمال يقرءونه أيضا. قلت: الفرق أن أصحاب الشمال إذا طالعوا كتابهم، وجدوه مشتملا على مشكلات عظيمة فيستولي عليهم الخجل والدهشة فلا يقدرون على إقامة حروفه فتكون قراءتهم كلا قراءة، وأصحاب اليمين إذا طالعوا كتابهم وجدوه. مشتملا على الحسنات والطاعات فيقرؤونه أحسن قراءة وأبينها"[2].

والصورة الثانية: أن الآية لم تذكر جزاء من أوتي كتابه بيمينه، بل غاية ما فيها أنها أخبرت أن القوم من حوله سيقرؤون كتابه !! فأي شيء في هذا ؟!! مع أن الآيات في سور أخرى قد تحدثت عن الجزاء في مثل هذا السياق، كما تقدم في الآيات السابقة من سورة الحاقة وسورة الانشقاق)!!

والجواب: أن إخفاء الجزاء هنا جاء لأمرين؛ الأول: التشويق إلى معرفته؛ لتذهب النفس فيه كل مذهب ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[3]، والآخر: مناسبة لجو السورة العام، وذلك من وجهين، أحدهما مناسبته لدلالة اسم السورة (الإسراء) الذي يشير إلى التخفي والتستر، فكما أن حركة الإسراء خافية، فكذلك تخفى جائزة هؤلاء الآن لتظهر في وقت معلوم. والوجه الآخر: مناسبة ذلك لجو التكريم، إذ كلما كان التكريم في جمع كانت الفرحة به أكبر

**الصورة الخامسة: هذه..... الآخرة**

اسم الإشارة (هذه) يشير هنا إلى الدنيا، بقرينة ذكر (الآخرة) في مقابلته، وقد

(١) سورة الانشقاق: ١٢/٧.
(٢) تفسير الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل – (١٣٨/٣).
(٣) سورة السجدة: ١٧.

ورد في القرآن كثيرا استعمال اسم الاشارة (هذه) لأغراض زائدة على الإشارة، فقد يفيد التنصيص على شيء بعينه، كما قال ﷻ: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالمين﴾(١)، وكما قال ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾(٢).

وقد يفيد الاستبعاد كما في قوله ﷻ: ﴿قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّه بَعْدَ مَوْتِهَا﴾(٣).

وقد يفيد الاستهزاء كما في قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هَذِهِ إيمانا﴾(٤).

وقد يفيد التكريم كما في قوله ﷻ: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٥)، وقوله ﷻ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ﴾(٦).

غير أنه حيث ورد مع (الدنيا) لم يفد إلا معنى التحقير والتقليل، سواء كان ذلك بذكر الدليل على قلة وحقارة ما يتعلق بها، أو بذكر ثواب الآخرة في مقابلها، أو بالأمرين معًا، وذلك في أحد عشر موطنا:

قوله ﷻ: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾(٧).

وقوله ﷻ: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وفِي الْآخِرَةِ﴾(٨).

وقوله ﷻ: ﴿وأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾(٩).

---

(١) سورة البقرة: ٣٥.
(٢) سورة البقرة: ٥٨.
(٣) سورة البقرة: ٢٥٩.
(٤) سورة التوبة: ١٢٤.
(٥) سورة هود: ١٢٠
(٦) سورة يوسف: ١٠٨.
(٧) سورة آل عمران: ١١٧.
(٨) سورة الأعراف: ١٥٦.
(٩) سورة هود: ٦٠.

وقوله ﷻ: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾(١).

وقوله –ﷻ – ﴿اللَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾(٢).

وقوله –سبحانه وتعالى– ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾(٣)

وقوله –ﷻ – ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٤).

وقوله –سبحانه وتعالى– ﴿وأتبعناهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنيا لعنة﴾(٥).

وقوله –سبحانه وتعالى– ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ ولَعِبٌ وإِنّ الدّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾(٦).

وقوله –سبحانه وتعالى– ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْض اللهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٧).

وقوله –سبحانه وتعالى– ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذه الحياةُ الدُّنيا مَتَاعٌ وَإِنّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾(٨).

فاستعمال اسم الإشارة (هذه) للكناية عن الدنيا أفاد أكثر من معنى؛ أولا: الدلالة على حقارة الدنيا وقلتها وهوانها على الله، وثانيًا: تعريفها بواسطة اسم الإشارة، فهي بذاتها لا تعرف، بخلاف الآخرة. وأخيرًا: التفخيم من شأن الآخرة حيث ذكرت في مقابل (الدنيا).

(١) سورة هود: ٩٩.
(٢) سورة النحل: ٣٠.
(٣) سورة الإسراء: ٧٢.
(٤) سورة طه: ٧٢.
(٥) سورة القصص: ٤٢.
(٦) سورة العنكبوت: ٦٤.
(٧) سورة الزمر: ١٠.
(٨) سورة غافر: ٣٩.

**الصورة السادسة: أعمى.. وأعمى**

يتميز الأسلوب البلاغي بفن (المشاكلة) وهي لغة: المماثلة، واصطلاحا: ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته[١]؛ "تحقيقا أو تقديرا"، كما في قوله ﷻ ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مثلها**﴾[٢]، وقوله ﷻ ﴿**إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا**﴾[٣]، **كيدا**﴾[٣]، واللفظان اللذان معنا هنا، وإن كانت مادتهما واحدة، إلا أنهما يدخلان في هذا الباب دخولا أصيلا؛ ذلك أن معنى (أعمى) الأولى، غير معنى (أعمى) الثانية فقد جاء في كتب التفاسير: "قال ابن عباس: {وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ} أي: في الحياة الدنيا {أعمى} عن حجج الله وآياته وبيناته ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ [٤].

والفرق بين الكلمتين هنا من وجهين، الأول: أن العمى الأول عمى معنوي، والعمى الآخر عمى حقيقي، بقرينة قوله –سبحانه وتعالى– ﴿**ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما**﴾ وقوله في الآية الأخرى ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كنت بَصِيرًا**﴾، والوجه الآخر: أن أعمى الأولى لا يقصد بها التفضيل بعكس الأخرى، فمعناها: أشد عمى، أي: مما كان عليه في الدنيا، بقرينة قوله –سبحانه وتعالى– بعد ذلك ﴿**وأضل سبيلا**﴾[٥].

(١) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع صـ ٣٠٩.

(٢) سورة الشورى: ٤٠.

(٣) سورة الطارق: ١٦.

(٤) تفسير ابن كثير – (٥ / ١٠٠)

٥ ) مستفاد من الطبري ، «تفسير الطبري = جامع البيان ط دار التربية والتراث» (١٧/ ٥٠٦). ٥٠٦).

## الفقرة الثانية [٧٣-٨٠]

### كرامة سيدنا محمد – على ربه

قال –سبحانه وتعالى– ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴿٨١﴾﴾[(١)].

**المعنى العام للآيات:** ذكر جمع من المفسرين[(٢)] أن هذه الآيات مدنية.

ذكر الرازي عن ابن عباس أنها مكية، غير قوله: {وإن كَادُوا} إلى قوله: {وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا}[(٣)] فإنها مدنيات، نزلت حين جاء وفد ثقيف[(٤)].

وقد رد هذه الرواية وغيرها – الحافظ ابن كثير، وذكر آثارا ووقائع تشهد في رأيه – بأن هذه الآيات مكية ليست مدنية، ورفض القول بمدنية هذه الآيات، فقال: " قيل: نزلت في اليهود، إذ أشاروا على رسول الله ﷺ بسكني الشام بلاد الأنبياء، وترك سكني المدينة. وهذا القول ضعيف؛ لأن هذه الآية مكية، وسكنى المدينة بعد ذلك.

---

(١) سورة الإسراء: ٧٣: ٨١.

(٢) منهم البيضاوي (ص: (٤٢٩) وابن عطية (٣) (٤٤١) والفخر الرازي (ص: ٢٧٧١) وغيرهم

(٣) سورة الإسراء: ٧٣: ٨٠.

(٤) تفسير الفخر الرازى (١/ ٢٧٧١)

وقيل: إنها نزلت بتبوك. وفي صحته نظر.

**قال البيهقي بإسناده** – عن عبد الرحمن بن غنم؛ أن اليهود أتوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم– يومًا فقالوا: يا أبا القاسم، إن كنت صادقا أنك نبي، فالحق بالشام؛ فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء. فصدق ما قالوا، فغزا غزوة تبوك، لا يريد إلا الشام. فلما بلغ تبوك أنزل الله عليه آيات من سورة بني إسرائيل بعد ما ختمت السورة: {وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا} إلى قوله: {تَحْوِيلا} فأمره الله بالرجوع إلى المدينة، وقال: فيها محياك ومماتك، ومنها تبعث"[(١)]... ثم ذكر القول بمكيتها فقال: "وقيل: نزلت في كفار قريش؛ هموا بإخراج الرسول من بين أظهرهم، فتوعدهم الله بهذه الآية، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيرا. وكذلك وقع؛ فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم، بعد ما اشتد أذاهم له، إلا سنة ونصف. حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم، فقتل أشرافهم، وسبى سراتهم"[(٢)].

ولا ينكر أحد أن جو الآيات قبلها وسياقها بعدها يشير إلى مكيتها، غير أن السياق ليس حكما فصلا في القول بمكية آية أو مدنيتها؛ فكثير من الآيات المكية بين آيات مدنية، والعكس.

ولا أنكر ما أجده في نفسي من تردد في الميل إلى القول بمدنية أو مكية هذه الآيات؛ نظرا للأسباب التالية: أولاً: قوله –سبحانه وتعالى– ﴿**وإن كادوا ليستفزونك من الأرض**﴾ ينصرف إلى أهل مكة، كما ينصرف إلى اليهود، فالآيات تحدثت عن محاولات فاشلة من أعداء النبي ليخرجوه من الأرض، وهذا الأمر وقع من كفار مكة؛ ليخرجوه منها، ووقع من اليهود؛ ليخرجوا النبي ﷺ من المدينة فقد ذكر القرآن ما كان من أهل مكة في هذا الشأن، قال تعالى ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك﴾، وقال –سبحانه وتعالى– ﴿**أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا**

(١) تفسير ابن كثير – (٥ / ١٠٠).
(٢) تفسير ابن كثير (٥/١٠١).

نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وقال –سبحانه وتعالى– ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾[1]. ومعلوم أن هذه الآية نزلت في حاطب بن أبي بلتعة ﷺ ومخاطبته لكفار مكة.

كما ذكر عن اليهود أنهم حاولوا كثيرًا في هذا الأمر، وشنوا الحرب تلو الأخرى على النبي ﷺ، وخانوا عهده غير مرة، وحاول ذلك عبد الله بن أبي بن سلول وأعلنها: ﴿ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل﴾.

**ثانيًا:** قوله –سبحانه وتعالى– ﴿ وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا﴾ يصح انصرافه إلى أهل مكة، كما يصح صرفه أيضا إلى اليهود، فقد عوقب أهل مكة بمحاولتهم إخراج الرسول – بهزيمة نكراء يوم بدر، كما تكرر العقاب الإلهي مع اليهود وأعوانهم في كل مرة حاولوا فيها تنفيذ مؤامرتهم، فأجلي يهود بني قينقاع، ثم يهود بني النضير، ثم بني قريظة، ثم يهود خيبر.

**ثالثا:** اسم السورة غير مرجح، حيث سميت باسمين؛ الأول (الإسراء) وهي معجزة وقعت في مكة قبل الهجرة بالإجماع، والآخر (بني إسرائيل) وهم قوم لم يختلطوا بالمسلمين إلا بعد الهجرة في المدينة.رابعا: في كل من القولين أثر يشهد له، ذكرهما ابن كثير رحمه الله "كما تقدم".

**<u>الترجيح:</u>** غير أني أميل – متحفظا – إلى اختيار مدنية هذه الآيات؛ لأن المعتمد عليه في معرفة السبب هو الأثر الصحيح الصريح في السببية، وبالنظر

(١) سورة الممتحنة: ١.

إلى الآثار الواردة في المسألة نجد أن الأثر[١] الذي ذكره ابن كثير رحمه الله، ذكره بصيغة التضعيف –(وقيل) – ودون إسناد (مما يؤكد ضعفه) – كما أن صيغته غير معتبرة في اعتماد السببية[٢]، وهي أقرب إلى التفسير بخلاف الأثر الذي رده، فهو مذكور بإسناده – وإن كان فيه ضعف – وصريح في السببية. فالذي تستريح إليه النفس أن هذه الآيات أقرب أن تكون مدنية.

وأيا ما كان الأمر، فالآيات تحدثت عن محاولات ومساومات جرت من أعداء الدين لإثناء النبي ﷺ عن دعوته، وقد كاد يفعل استمالة لهم – لولا أن ثبته الله ﷻ، كما كانت بعض هذه المحاولات بغرض إخراج النبيﷺ من أرضه؛ حتى لا يفسد عليهم باطلهم، ولو فعلوا لأهلكهم الله ﷻ انتقاما لنبيه ﷺ متبعة مع كل الأقوام الذين عاندوا رسل الله وتآمروا عليهم ﴿**سنة من قد أرسلنا من قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا**﴾، ومن ثم يوجه القرآن النبي –ﷺ – إلى الالتفات لمحاولاتهم أو الانشغال بها، وأن يميم وجهه شطر ربه في صلاته ضارعًا، وينتظر يد الله التي تعمل في الخفاء، لتمكنه منهم بعد أن راموا التمكن منه، وتنصره عليهم بعد أن أوشكوا الانتصار عليه ﴿**وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعلنى من لدنك سلطانا نصيرا**﴾.

**علاقة الآيات بما قبلها:**

يقول الرازي رحمه الله: "اعلم أنه تعالى لما عدد في الآيات المتقدمة أقسام نعمه على خلقه وأتبعها بذكر درجات الخلق في الآخرة وشرح أحوال السعداء أردفه بما

(١) وقيل: نزلت في كفار قريش، هموا بإخراج الرسول من بين أظهرهم، فتوعدهم الله بهذه الآية، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده إلا يسيرًا. وكذلك وقع؛ فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم، بعد ما اشتد أذاهم له، إلا سنة ونصف حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم، فقتل أشرافهم، وسبى سراتهم. تفسير ابن كثير (١٠١/٥).

(٢) قال السيوطي: قال ابن تيمية قولهم نزلت هذه الآية في كذا يراد به تارة سبب النزول ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية وإن لم يكن السبب كما تقول عني بهذه الآية كذا" الإتقان في علوم القرآن (٩٣/١).

يجري مجرى تحذير السعداء من الاغترار بوساوس أرباب الضلال والانخداع بكلامهم المشتمل على المكر فقال: ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾(١).

**الصور الجمالية:** [الذي أوحينا إليك]

في هذه الكلمات الثلاثة فنّان من فنون البلاغة، وهما الالتفات، وإيثار التعريف بالموصول موضع العلم، وهما يؤديان معا إلى شيء واحد !!

فجاء الالتفات من مخاطبة الجمع – وهم عموم الناس – في قوله –سبحانه وتعالى– ﴿**ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر..** ﴾ إلى مخاطبة المفرد وهو محمد ﷺ بقوله ﷻ ﴿ وإن كادوا ليفتنونك... ﴾.

وآثر التعريف باسم الموصول الذي أوحينا إليك مكان العلم وهو (القرآن)(٢)، وما يؤديان إليه أمر واحد وهو (التكريم) الذي هو محور السورة الأصيل فالتكريم واضح في الالتفات من الجمع إلى المفرد؛ لأن ترك خطاب الجمع إلى خطاب المفرد يدل على أهمية هذا المفرد وتفضيله – في الحديث – على جميع من عداه. والتكريم واضح في إيثار التعبير بالذي أوحينا إليك بدلا من (القرآن)؛ لأن فيه إثباتا لنسبة هذا القرآن إلى منزله –سبحانه ونعالى–، بعد بيان أن كفار مكة هم الطرف المقابل، وأن ما يعرضونه على النبي محض افتراء، فقابل ما دل عليه ضمير الجمع في قوله (وإن كادوا ليفتنونك) بما دل على الجمع في (أوحينا، علينا) وقابل ما دل عليه (لتفتري) من الكذب والبهتان بما دل عليه (أوحينا) من الأصالة والعظمة، كما أن من أغراض التعريف بالاسم الموصول «التعظيم وذلك بأن تذكره بصلته المعظمة كقوله تعالى: {تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى}[طه:

(١) تفسير الفخر الرازى – (١ / ٢٨٣٧).

(٢) ولهذا اللون في القرآن نظائر كقوله –سبحانه وتعالى– ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف:٢٣].

٤]، وقوله: {والذي جاء بالصدق وصدق به}[الزمر: ٣٣]»[١] وكما في هذه الآية التي معنا، فبان عند ذلك قيمة التعبير باسم الموصول وصلته مكان اسم العلم، ولو عبر ب (القرآن) فقط لما أفاد كل هذا.

**وإذًا لاتخذوك خليلا**

ورد هذا التعبير في موطنين من القرآن –غير هذا–، في قوله –سبحانه وتعالى– ﴿**وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا**﴾[٢] وفي قوله –سبحانه وتعالى-( **يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا**﴾[٣].

والفرق بين الآيات الثلاثة أن (اتخذ) في الآية الأولى بمعنى (اختار) و(خليلا) فعيل بمعنى مفعول، وفي الآية الثانية جاءت (أتخذ) بمعنى (أتبع) و(خليلا) فعيل يستوي فيها فعيل ومفعول؛ لأن فيها مساواة بين الطرفين، أما في هذه الآية فالأمر مختلف نوعا ما!!.

وقد كان من الممكن في غير القرآن – أن يقال: وإذا لصاحبوك، أو يقال: وإذا لخاللوك !!! وهو تعبير يفهم منه رضا كفار مكة عن نبينا –صلى الله عليه وسلم– إذا وافقهم في مذهبهم وأجابهم إلى ما طلبوا، ويكون الفاعلان في المصاحبة أو المخاللة متساويين، لكن القرآن يؤثر التعبير باتخذوك.. خليلا)؛ لأن في (اتخذ) معنى قوة الآخذ "وهو هنا كفار مكة وضعف المأخوذ "وهو هنا النبي ﷺ "فكأنه أسير عندهم، كما قال –سبحانه وتعالى–: ﴿ **فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وجدتُمُوهُمْ**﴾[٤].

وقوله تعالى:﴿**فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ ويكفوا أَيْدِيَهُمْ فَخَذُوهُمْ**

(١) معاني النحو: ١/١٢٠.
(٢) سورة النساء: ١٢٥.
(٣) سورة الفرقان: ٢٨.
(٤) سورة النساء: ٨٩.

**وَاقْتِلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾**(١)؛ ولنفهم من ذلك أن (خليلا) فعيل بمعنى المفعول، لا بمعنى الفاعل؛ لأن الجزء الآخر المفهوم من الآية: أنك الآن – بثباتك على دينك وعدم تغييرك له يا محمد – في حمانا، وخليل لنا، فإن أجبتهم إلى ما طلبوه منك صرت أسيرًا لهم، وهي صورة راقية للإطناب، لا يغني عنها الإيجاز بحال.

**ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا.**

(لَوْلا حَرْفٌ يقتضي – فِي جُمْلَةٍ اسْمِيَّةٍ – امْتِنَاعَ جَوَابِهِ لِوُجُودِ شَرْطٍ نَحْوُ: لَوْلا زَيْدٌ لأَكْرَمْتُكَ"، أي: لَوْلا زَيْدٌ مَوْجُودٌ؛ فَامْتِنَاعُ الإِكْرَامِ لِوُجُودِ زَيْدٍ. وتقتضي – فِي جُمْلَةٍ مُصَدَّرَةٍ بِفِعل مُضَارِع – تحضيضا، نَحْوُ: لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ الله فَهُوَ للتحضيض، وَهُوَ طَلَبٌ بِحَث.

وتقتضي – فِي جَمَلَةٍ مُصدّرة بفعل ماض– تَوْبِيخًا نَحْوُ ﴿**لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ**﴾.

وتَقْتَضِي أَيْضًا فِي الْجُمَلَةِ الْمَاضِيَةِ "عَرْضا" نَحْوُ قَولَهُ تَعَالَى: ﴿**لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أجل قريب فأصدق**﴾(٢).

وهي هنا من النوع الأول، غير أن الاسم بعدها جاء مؤولا، لا صريحًا، والمعنى: لولا تثبيتنا لك لركنت إليهم، وهكذا يأتي التعبير في غير القرآن وهنا يبدو الجمال في النظم القرآني من وجهين، أحدهما: التعبير بالمصدر المؤول دون الصريح (أن ثبتناك)، والآخر: التذييل ب (شيئًا قليلا) والمعنى – في غير القرآن – يحسب تاما دون هذا التذييل.

**<u>أما الوجه الأول</u>:** فلنعلم أولا أن الداعي للعدول عن المصدر الصريح إلى المؤول أمور مهمة تتعلق بالمعنى، وهي:

---

(١) سورة النساء: ٩١.

(٢) شرح الكوكب المنير – (٢٨٤/١).

الدلالة على زمان الفعل؛ سواء أكان ماضيًا نحو الشائع أن حضرت، أم مستقبلا؛ نحو: الشائع أن تحضر. فلو قلنا – أول الأمر – الشائع حضورك، لم ندر زمن الحضور؛ أمضى، أم لم يَمْضِ ؟.

الدلالة على أن الحكم مقصور على المعنى المجرد للفعل؛ من غير نظر لوصف يلابسه أو لشيء آخر يتصل به نحو أعجبني أن أكلت، أي: مجرد أكلك لذاته؛ لا لاعتبار أمر خارج عنه؛ ككثرته، أو قلته، أو بطئه، أو سرعته، أو حسن طريقته، أو قبحها... ولو قلنا: أعجبني أكلك... لكان محتملا لبعض تلك الأشياء والحالات.

الدلالة على أن حصول الفعل جائز لا واجب، نحو: ظهر أن يسافر إبراهيم. فالسفر هنا جائز. ولو قلنا: ظهر سفر إبراهيم لساغ أن يسبق إلى بعض الأذهان أن هذا الأمر واجب.

الحرص على إظهار الفعل مبنيًا للمجهول؛ تحقيقا للغرض من حذف فاعله. وذلك عند إرادة التعجب من الثلاثي المبني للمجهول؛ ففي مثل: عرف الحق، يقال: ما أحسن ما عُرف الحق!"(١).

فإذا ما رجعنا إلى الجملة التي معنا لنطبق عليها هذا الكلام، فإن لنا أن نقول: إنه –سبحانه وتعالى– عبر بالمصدر المؤول هنا دون الاسم الصريح؛ لأمرين: **الأمر الأول**: التنبيه على زمن التثبيت، وأنه حدث بالفعل (فعبر بالماضي: أن ثبتناك)، ودون تكرر (فلم يقل: ولولا أن نثبتك، بالمضارع الدال على التجدد)؛ لأن داعيه لم يتكرر.

**والأمر الآخر**: بيان طبيعة النبي ﷺ البشرية، فهو معصوم بعصمة الله – سبحانه وتعالى– له ومحفوظ بحفظه له كما قال تعالى: ﴿**والله يعصمك من الناس**﴾، بالمصدر الصريح (تثبيتك) لما عرف مصدر هذا الثبات.

(١) النحو الوافي للأستاذ عباس حسن (٢٧٥/١).

**وأما الوجه الآخر**: هو التذييل ب (شيئا قليلا)، مع أن المعنى قد تم عند قوله تعالى ﴿**لقد كدت تركن إليهم**﴾، وفهم من نفي قرب الركون أنه لا ركون أصلا ولو شيئًا قليلا، لكن النظم القرآني يؤكد على (شيئًا قليلًا)، وقد كان المتكلم في غير القرآن ليختار التعبير ب (ركونا) مصدر (تركن) كصورة أولية للتعبير، لكن الجمال في هذا التذييل نابع من جهتين، الأولى: وصف المصدر ب (قليلا) ليكون الكلام في صورته الثانية: (ركونًا قليلا)، والأخرى حذف المصدر والتعويض عنه ب (شيئا) ليكون التعبير في صورته النهائية: (شيئا قليلا)!.

**فما الداعي لهذا العدول** ؟ إن الغرض من وجود المفعول المطلق بعد الفعل هو التأكيد على الحدث بالمصدر بعد الإشارة إليه بالفعل، فحين يقول القرآن ﴿**رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا**﴾، فإنه يعطي القارئ تأكيدًا لصد هؤلاء عن الدين مرة بالفعل، وأخرى بالمصدر وعليه فاستعمال هذا التعبير (المفعول المطلق) مع الفعل يكثر في الجمل المثبتة، والجملة هنا جملة ممتنعة الحدوث؛ لأنها في جواب لولا، فهي وإن كانت مثبتة لفظا فهي منفية معنى، فاستعمال المصدر فيها يجعلها متناقضة؛ لأن وقوعها في جواب لولا يجعلها غير حاصلة أصلا واستعمال المفعول المطلق فيها يجعلها مؤكدة. فكان لابد من أن ينوب عنه لفظ يشير إليه هذا من جهة.

**ومن جهة أخرى**: فإن التعبير ب (شيئًا قليلًا) يشير إلى التقليل والتحقير؛ لأن (شيئا) بعيدا عن تنكيرها – تفيد القلة أصلا، حيث وردت في القرآن[1]، كقوله – سبحانه وتعالى– ﴿**إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[2]، وهي هنا للتنبيه بالأدنى على الأعلى، وعلى عموم قدرته –سبحانه وتعالى– على جميع الأشياء، وقوله –سبحانه

(١) وقد وردت في القرآن الكريم – في حوالي خمسين ومائتي موضع، كلها يشير إلى القلة.
(٢) سورة البقرة: ٢٠.

وتعالى- ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ**﴾[١].

وقد جاءت في الآية التي معنا نكرة، موصوفة بـ(قليلا)، والنكرة إذا وصفت بما يدل على القلة أفادت القلة، وإذا وصفت بما يدل على الكثرة أفادت الكثرة، كما قال –سبحانه وتعالى- ﴿**وشروه بثمن بخس دراهم معدودة**﴾، وكما قال –سبحانه وتعالى-﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات﴾، فكأن القرآن يشير إلى أن تدخل القدرة الإلهية لتثبيت النبي ﷺ لم تكن عن الركون الكامل منه ﷺ إليهم، بل كانت عن مجرد الميل الظاهري إليهم (شيئا قليلا) !.

يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله: "والمتأمل في هذه الآية يجدها تحتاط لرسول اللهﷺ عدة احتياطات، فلم تقل: لولا تثبتنا لك لركنت إليهم، لا، بل لقاربت أن مجرد المقاربة، أما الركون فهو أمر بعيد وممنوع نهائيًا وغير مُتصوّر من رسول الله، ومع ذلك أكد سبحانه وتعالى هذا المعنى بقوله: {شَيْئاً قليلاً} أي: ركوناً قليلاً مما يدل على أن طبيعته ﷺ حتى دون الوحي من الله طبيعة سليمة بفطرتها، فلو تصوّرنا عدم التثبيت له من الله ماذا كان يحدث منه؟ يحدث مجرد (كاد) أو (قَرُب) أن يركن إليهم شيئاً قليلاً"[٢].

**إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات –**

اختارت الآية (التعبير) بألفاظ (أذقناك) بدل (عاقبناك)، و(الممات) بدل (الموت) في مقابل الحياة واختارت (التركيب) بحذف كلمة (عذاب) من موطنين في الجملة، والتقدير:(ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات)، كما اختارت تكرار كلمة (ضعف)، هذا هو الإجمال، وإليك التفصيل:

**جمال التعبير:** أذقناك

أصل الذوق: إدراك الطعم، وروده في القرآن بهذا المعنى قليل، ومنه قوله –

(١) سورة البقرة: ٤٨.

(٢) تفسير الشعراوي – (١ / ٥٢٧٧)

سبحانه وتعالى- ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾[1]، وأكثر ما وردت في القرآن بمعنى الإحساس العام، سواء في الرحمة أو في العذاب، لكنه قليل في الأول، مشتهر في الآخر.

ومن وروده في جانب الرحمة قوله -سبحانه وتعالى- ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾[2]، وقوله -سبحانه وتعالى- ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾[4].

ومن وروده في جانب العذاب – وهو الأكثر كما قدمت – قوله ﷻ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [5]، وقوله -سبحانه وتعالى- ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[6] وقوله تعالى ﴿هذا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[7]، وقوله ﷻ ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾[8]. وقوله: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾[9]، وغيرها كثير.

وقد كان من الممكن أن يعبر القرآن هنا بكلمة (عاقبناك) إذا كان المراد العقاب المحض، غير أن لفظ (أذقناك) أخف وطأة من (عاقبناك)؛ إذ إنه يحتمل الرحمة

(١) سورة الأعراف: ٢٢.
(٢) سورة يونس: ٢١.
(٣) سورة هود: ٩.
(٤) سورة الشورى: ٤٨.
(٥) سورة آل عمران: ١٠٦.
(٦) سورة الأعراف: ٣٩.
(٧) سورة التوبة: ٣٥.
(٨) سورة السجدة: ١٤.
(٩) سورة النبأ: ٣٠.

الآجلة بعد الابتلاء العاجل، ويحتمل مجرد الإحساس دون التلبس بشيء من العذاب، ففي التعبير به من التكريم لنبينا ﷺ ما لا يخفى.

الحياة والممات

الحياة والموت مصدران أصليان وردا معا في القرآن، قال –تعالى– ﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ والحياة ليبلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا**﴾[١] وقال –سبحانه وتعالى– ﴿**وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا**﴾[٢]، والمحيا والممات مصدران ميميان، وردا معا في القرآن، قال تعالى ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[٣]، وقوله–تعالى –﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾[٤].

ولا يخفى ما بين كل من المصدرين الأصليين والميميين – من تناسب، لكن هذه الآية تعرض صورة منفردة وهي (المصدر) الأصلي – الحياة – مع المصدر الميمي –الممات–، ولعل السر في هذا أن وزن الكلمتين في الحركة والسكون واحد، كما أنك لو قارنت عدد الحروف بين الموت والممات، لوجدت زيادة ملحوظة فتلك ثلاثة أحرف وهذه أربعة، ولو نظرت إلى نوعية الحروف لوجدت في (الممات) قوة لا توجد في (الموت)؛ لأن الألف في (الممات)حرف مد، أما الواو في (الموت) فحرف لين، والمد أقوى من اللين.. وهذا كله مناسب لمعنى (الضعف) المذكور في الآية.

**<u>جمال التركيب:</u>**

**. ضعف الحياة، وضعف الممات.**

أجمع المفسرون –ممن رجعت إليهم– أن في الكلام حذفًا، تقديره (عذاب)، وتأويل

(١) سورة الملك: ٢.

(٢) سورة الفرقان: ٣.

(٣) سورة الأنعام: ١٦٢.

(٤) سورة الجاثية: ٢١.

الكلام: ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات، وأحسب أن عدم التصريح بها هنا رغم حاجة القارئ إليها – مرده لأمرين، لا ثالث لهما:

الأول: عدم نسبة العذاب إلى الله [باعتبار أن الجملة كلها مسندة إليه] وهكذا جرت عادة القرآن في التصريح بنسبة الخير إلى الله –سبحانه وتعالى– وعدم التصريح بنسبة الشر إليه، كما جاء في هذه السورة، ﴿**وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونئا بجانبه وإذا مسه الشر كان يئوسا**﴾(١).

والآخر: تكريم لمقام النبي ﷺ أن يصرح بإيقاع (العذاب) عليه، وهذا – أعني التكريم – غرض أصيل في السورة كما تقدم

• ضعف.. وضعف

الضعف: "ضعف الشيء أو العدد مثله أو هو الذي يثنيه فالأصل في معنى ضعف إذا أضيف إلى العدد أن يكون ذلك العدد ومثله، فضعف الواحد اثنان وضعف العشرة عشرون وهكذا، وضعفا الشيء أو العدد: هو مثلاه مضافين إليه، أي: ثلاثة أمثاله، فإن قيل: أعطه ضعفي واحد، فالمعنى ثلاثة، وبذلك فسر بعضهم قوله –سبحانه وتعالى– ﴿**ربنا آتهم ضعفين من العذاب**﴾، أي: ثلاثة أعذبة وعلى هذا يكون أضعاف العدد أربعة أمثاله على الأقل هذا هو الأصل في معنى ضعف وضعفين وأضعاف"(٢).

وكل ما في القرآن من الفعل (يضاعف) للفاعل والمفعول، و(ضعف) بالكسر، ومثناها وجمعها (أضعاف) والصفة (مضعف) بكسر العين، و (مضاعف) بفتحها، كل ذلك من زيادة مثل الشيء أو أمثاله عليه"(٣).

والتعبير عن (المضاعفة) له طريقان في القرآن: الأولى: أن يعبر بالاسم، سواء

---

(١) سورة الإسراء:٨٣. وهذا في الغالب ، وليس باطراد ، اذ قد ورد في القرآن الكريم أيضا نسبة العذاب والشر والضر إليه سبحانه.

(٢) المعجم الوسيط – (١ / ٥٤٠)

(٣) المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، للدكتور محمد حسن جبل ٣/ ١٢٩٠.

كان مفردًا كما في قوله –سبحانه وتعالى– ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾[١]. وقوله –سبحانه وتعالى– ﴿قالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعفًا فِي النَّارِ﴾[٢]، أو مثنى (ضعفين) كما في قوله –سبحانه وتعالى– ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾[٣].

وقوله –سبحانه وتعالى– ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾[٤].

أو مجموعًا كما في قوله –سبحانه وتعالى– ﴿مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٥].

وقوله –سبحانه وتعالى– ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾[٦]. أو غير ذلك من تقلبات الاسم.

والأخرى لأن يعبر بالفعل (يضاعف) كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾[٧].

وقد كان يكفي –في غير القرآن– أن يقال: ضعف الحياة والممات، لكن النص القرآني يعيد الكلمة مرة أخرى؛ ليؤكد على قضية المضاعفة في الحالين، إذ لو قال ضعف الحياة والممات لربما توهم متوهم أنه يكون مرة واحدة في الدنيا أو في الآخرة، ولربما ظن آخر أنه قد يكتفى بواحد منهما فقط، لكنه كرر (ضعف) ليرفع هذا الالتباس، وليكون المعنى مضاعفة العذاب في الدنيا، ومضاعفته في الآخرة،

(١) سورة الأعراف: ٣٨.
(٢) سورة ص: ٦١.
(٣) سورة البقرة: ٢٦٥.
(٤) سورة الأحزاب: ٦٨.
(٥) سورة البقرة: ٢٤٥.
(٦) سورة آل عمران: ١٣٠.
(٧) سورة الفرقان ٦٨، ٦٩.

وذلك كما كررت (ما) في قوله ﴿**ما ضل صاحبكم وما غوى**﴾؛ "حتى لا يُتصور أنه ﷺ نفى الجمع بينهما فقط، وإنما نفى الجمع بينهما والإفراد[1].

فتكرار هذه الكلمة جاء مراعاة لمقام النبوة؛ لأنه ﷺ القدوة فالركون منه غير متصور، يقول الشيخ الشعراوي: " فالمراد: لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات، لكن لماذا يُضاعف العذاب في حق محمد ﷺ؟ قالوا: لأنه أُسوة كبيرة وقدوة يقتدي الناس بها، ويستحيل في حقه هذا الفعل، ولا يتصور منه، لكن على اعتبار أن ذلك حدث منه فسوف يُضاعَف له العذاب، كما قال تعالى في نساء النبي ﷺ: ﴿**يانساء النبى مَن يَأْتِ مِنكُنّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا العذاب ضعْفَيْن وَكَانَ ذَلكَ عَلَى الله يَسيراً**﴾[2].

ذلك لأنهن بيت النبوة وأمهات المؤمنين، وهنَّ أُسوة لغيرهنّ من نساء المسلمين، وكلما ارتفع مقام الإنسان في مركز الدعوة إلى الله وجب عليه أن يتبرأ عن الشبهة؛ لأنه سيكون أُسوة فعل، فإنْ ضَلَّ فلن يضل في ذاته فقط، بل سيضل معه غيره، ومن هنا شدَّد الله العقوبة وضاعفها للنبي ولزوجاته"[3].

• **ولا تجد لسنتنا تحويلا:**

جاء في سورة فاطر ﴿**فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا**﴾، بلن، وإظهار لفظ الجلالة وتكرار الجملة، والفرق واضح بين هذه الآية وبين الآية التي معنا، التي جاءت حالية (في الزمن الحالي)، دون لفظ الجلالة، ودون تكرار. و(لا): نافية، حتى الزمان الحالي، و(سنتنا): عادتنا، وتحويل الشيء: هو بقاء أصله مع تغيير بعض صفاته.

والمعنى: عادتنا – مع الرسل السابقين ومعك – في نصر الرسل وأتباعهم وإهلاك

(١) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل: (٥٠/١).

(٢) سورة الأحزاب: ٣٠.

(٣) تفسير الشعراوي – (١ / ٥٢٧٨).

المكذبين وأمثالهم – ثابتة لا تتحول.

ويكمن الجمال هنا في أمرين، أحدهما: أسلوب الكلام، والآخر: الاستعارة القائمة في الآية.

**أما الأول:** فالمعلوم أن أساليب الكلام تختلف باختلاف حال المخاطب، فالمخاطب الموافق (خالي الذهن) لا يحتاج إلى مؤكدات، والمخاطب المتردد يحتاج إلى مؤكد في الجملة، والمخاطب المنكر يحتاج إلى غير مؤكد، والخطاب من أول قوله وإن كادوا ليفتنونك لنبينا، ويكاد المرء – وهو يقرأ هذه الآيات – يظن أن نبينا – قد هم بالركون إلى كفار مكة، ومن ثم يشعر أنه قد وقع فريسة فتنتهم له، ونتيجة الفتنة تردد ثم إنكار لما كان المرء ومثل هذا الشخص ينبغي أن يشتمل خطابه على مؤكدات، لكن القرآن يمنحنا في أسلوب هذه الآية – إشارة إلى أنه – ما ركن إليهم، وما فتن فهو لايزال موافقا لربه – يتلقى عنه في تسليم وثقة وإيمان، في حين جاء الكلام في سورة فاطر بالتأكيد بلن وتكرار الجملة – لأن الكلام قبلها – كان عن المشركين – ﴿**فهل ينظرون إلا سنة الأولين**﴾.

**والآخر:** الاستعارة المكنية؛ حيث شبهت سنة الله –سبحانه وتعالى– بنهر يجري ثم حذف المشبه به وهو (النهر) ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو (التحول) وأسنده إلى المشبه، وسر الجمال هنا أن النهر قد يغير مساره ليلتف حول صخرة ما – لكنه لا يغير اتجاهه، فهو مستمر في جريانه، ثابت في اتجاهه، يتأخر أحيانًا لكنه حتما سيصل إلى مصبه وكذلك سنة الله في إهلاك المكذبين، مستمرة في حدوثها ﴿**قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾[1] – ثابتة في اتجاهها، تنصر المؤمنين – ﴿**إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ**﴾[2] – تتأخر أحيانًا، لكنها حتمًا ستصل إلى

(١) سورة آل عمران: ١٣٧.

(٢) سورة غافر: ٥١.

مصبها- ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ والضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيب﴾[1]، – فبان لك أن الاستعارة جاءت على أجمل وجه وأحسنه

• ﴿عسى أن يبعثك ربك﴾

وسر الجمال في هذه العبارة أنها تنقل القارئ من الحديث عن موضوع إلى الحديث عن موضوع آخر دون تكلف أو تعسف.

والناظر في الآية يجد أن معنى (يبعثك): يقيمك من موتك، وقد كانت الآية قبل ذلك تتحدث عن تكليفه ﷺ بالتهجد وهو القيام لصلاة الليل بعد نوم[2]، فالتهجد فيه نوم وهو أخو الموت، وفيه قيام من النوم وهو أخو البعث، وفي الحديث عن جابر – قال: سأل رجل رسول الله ﷺ: أينام أهل الجنة؟ قالت: النوم أخو الموت ولا يموت أهل الجنة"[3].

فكأن الآية تقول لمحمد ﷺ: عود نفسك أن تقوم من نومك لتقف بين يدي ربك مصليا، فعما قريب ستقوم من موتك لتقف بين يدي ربك وقوفا يغبطك الأولون والآخرون عليه.

فالآية انتقلت في الحديث عن القيام من النوم إلى القيام من الموت، دون أن تشعر القارئ أن ثمة فجوة بين بداية الحديث وختامه .

﴿وقُلْ رَبِّ أَدْخلنى مدخل صدق وأَخْرِجْنِى مُخْرَج صدق﴾

ذكر العلامة الطبري رحمه الله اختلاف أهل التأويل في معنى مدخل الصدق الذي أمر الله نبيّه ﷺ أن يرغب إليه في أن يدخله إياه، وفي مخرج الصدق الذي

(١) سورة البقرة: ٢١٤.

(٢) جاء في لسان العرب: "وتهَجَّدَ القوم استيقظوا للصلاة أو غيرها وفي التنزيل العزيز ومن الليل فتهجد به نافلة لك الجوهري هَجَدَ وتهَجَّدَ أي نام ليلا وهَجَدَ وتَهَجَّدَ أَي سَهرَ وهو من الأضداد، ومنه قيل لصلاة الليل التَّهَجُّدُ " لسان العرب باب الدا فصل الهاء – (٤٣١/٣).

(٣) شعب الإيمان للبيهقي: ١٨٣/٤.

أمره أن يرغب إليه في أن يخرجه إياه، ونقل أقوالهم في ذلك، وملخص ما نقله رحمه الله، أنهم اختلفوا في ذلك على ستة أوجه:

فقال بعضهم: عَنى بمُدْخل الصدق: مدخل رسول الله –صلى الله عليه وسلم– المدينة، حين هاجر إليها، ومُخْرَج الصدق: مُخْرجه من مكة، حين خرج منها مهاجرا إلى المدينة.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وقل رب أمتني إماتة صدق، وأخرجني بعد الممات من قبري يوم القيامة مُخرج صدق.

وقال آخرون: بل عنى بذلك: أدخلني في أمرك الذي أرسلتني به من النبوة مدخل صدق، وأخرجني منه مُخْرَج صدق.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أدخلني مدخل صدق: الجنة، وأخرجني مخرج صدق من مكة إلى المدينة.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أدخلني في الإسلام مدخل صدق.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: "أدخلني مكة آمنًا، وأخرجني منها آمنا"[(١)].

وليس هذا البحث مجال مناقشة هذه الأقوال؛ فللمناقشة أصولها ومجالها، والذي يعني البحث هنا هو جمال التعبير في هذه الآية، وهو واضح في ألفاظها ومعانيها، أما الألفاظ فالغرابة زينتها (مُدْخَل ومُخْرَج)، والطباق تاجها (أدخلني وأخرجني) والفصل والوصل درة التاج فيها (أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق).

**<u>والمعاني فرع عن كل هذا، وبيانها في نقاط:</u>**

**أولاً:** جاء مطلع الآية إدغام بين اللام والراء في أول كلمتين (وقل رب) والإدغام وهو اللفظ – أي: النطق – بحرفين حرفا كالثاني – مشددا[(٢)]، أي: إدخال حرف في آخر بحيث يصيران حرفا واحدًا مشددًا. فهو مناسب لمعنى الإدخال

(١) تفسير الطبري: ٥٣٣/١٧.

(٢) الإتقان في علوم القرآن: ٢٥٠/١.

المدعو به في الآية.

**وثانيًا:** التعبير بالمصدر الميمي (مدخل ومخرج) بدلا من التعبير بالمصدر (إدخال، وإخراج)، فلعل الصيغة "مفعل" فيها نوع من الشمول لا يتأتى في التعبير بصيغة "إفعال"؛ لأن الأولى تحتمل المكان والزمان واسم المفعول؛ فيشتمله الصدق على كل حال، والله أعلم.

**وثالثا:** الترتيب بين قوله (أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق)، وقد تقدم ذكر الأقوال في المراد بالدخول والخروج، ولو سرنا مع جمهور المفسرين في اختيارهم لصار في ترتيب الآية هنا إشكال " ووجه الإشكال: أن النبي –صلى الله عليه وسلم– كان في مكة وقتها، فيكون مطلوبه الأول هو الخروج منها ومن ثم الدخول فيها – مرة ثانية – أو في غيرها، فكيف قدم طلب دخوله غيرها على الخروج منها رغم إقامته فيها آنذاك ؟

قال ابن عطية رحمه الله: إن مكان الدخول والقرار أهم(١).

**قلت:** هذا يصلح جوابًا للقول الأول، ولا يصلح للثاني كما لا يخفى، فجوابه "إن شاء الله": أن الخروج فرع عن الدخول، فكل دخول – في الدنيا يتبعه خروج، وليس العكس، وإذا كان الأمر كذلك وكان الأصل مقدمًا على الفرع فتقديم الدخول على الخروج من هذا الوجه، ولما كان الدخول والخروج عملا يقوم به النبي ﷺ، وكان جعل (السلطان) مددًا من الله –سبحانه وتعالى–، وكان المطلوب من الإنسان أن يعمل ويأخذ بالأسباب، ثم يطلب المدد والعون من الله.

لما كان الأمر كذلك تقدم في الذكر ما يتقدم في الوقوع فقدم الدخول والخروج على طلب السلطان؛ وهذا الجواب عام في كل التأويلات المذكورة في الآية، هذا والله تعالى أعلم"(٢).

---

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٤٧٩).

(٢) جزء من رسالة العالمية (الدكتوراة ) للباحث ص ١٧٠– ١٧١.

**رابعًا وأخيرًا:** لا يخفى عليك أيضا أن السورة تدور على (التكريم) والتكريم يقتضي البدء بالإدخال؛ لأنه أقرب إلى التكريم من الإخراج، ويقتضي وصف الإدخال والإخراج بالصدق، وهذا ما تنطق الآية به. والله تعالى أعلم

**﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل﴾.**

إنك تلمح في كلمات الآية تقابلا واضحًا بين (الحق والباطل)؛ لتعطيك الإشارة الأولى بحتمية الصراع بين الإسلام الذي يمثل الحق" والكفر "الذي يمثل الباطل" ! وهذا من جانب التعبير.

وتلمح تكرارًا لكلمة (الباطل) بنصها، ولمادة (زهق) لم يحدث في كلمة (الحق) ولا في كلمة (جاء) لتعلم أولاً أن الحق واحد، وأن الباطل فرق وأحزاب ! وليتناسب ذكر معنى الاندحار (زهق) مع ذكر (الباطل) فكلاهما كرر مرتين وهذا في جانب التركيب.

وتلمح كذلك إسناد كل من الفعلين (جاء وزهق) إلى فاعلين معلومين (الحق والباطل)؛ لتفهم أن حياة الحق وأسباب بقائه كامنة فيه لا فيمن يحملونه، وأن أسباب ذهاب الباطل واندحاره كامنة فيه لا فيمن يروجون له. وهذا أيضا في جانب التركيب.

وتلمح كذلك تأكيدا لنصف الآية الأخير، وكأن الناس يشكون في هذه النهاية الحتمية؛ لئلا تغتر بكثرة الباطل وقوته وسطوته!! وهذا في جانب الترتيب ثم إنك ترى في التعبير بـ(جاء) و(زهق) ما يشد الآية شدًا وثيقا إلى اسم السورة (الإسراء) الذي يتضمن حركة فيها مجيء وذهاب ، ويشد الآية كذلك إلى موضوع السورة " وهو التكريم والتفضيل كما تقدم؛ لترى بعيني رأسك كرامة الحق على الله، وهوان الباطل وضعفه !!.

**ومن جمال التعبير** هنا اختيار الواو بدلا من الفاء العاطفة؛ إذ إن معنى الكلام (جاء الحق فزهق الباطل). والتعبير بالواو هنا بدلا من الفاء للإشارة إلى أنه لا مهلة زمنية – ولو كانت قليلة، وهي التي تفيدها الفاء – بين مجيء الحق

وزهوق الباطل؛ إذ إن وجود الباطل من شأنه أن يعكر على أهل الحق صفو حياتهم، فكان التعبير بالواو – والواقع أن هناك مهلة بين ظهور الحق واندحار الباطل – بدلا من الفاء ليفيد اشتراك الحدثين مجيء الحق وزهوق الباطل – في زمن واحد.

## الفقرة الثالثة [٨١-٨٩]

### جلال القرآن الكريم وعلو قدره

قال الله –تعالى–: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾.

**علاقة الآيات بما قبلها:**

كان الحديث في الآيات السابقة عن الرسول ﷺ وعن محاولات المشركين إثناءه عن دينه ورسالته، فجاءت هذه الآيات تتحدث عن الرسالة، خاصة القرآن – وفضلها وخطرها، وموقف المعاندين منها.

**المعنى العام:**

"يقول تعالى مخبرًا عن كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد إنه: ﴿شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي يذهب ما في القلوب من أمراض، من شك ونفاق، وشرك وزيغ وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله. وهو أيضا رحمة يحصل فيها

الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه واتبعه، فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة. وأما الكافر الظالم نفسه بذلك، فلا يزيده سماعه القرآن إلا بعدًا وتكذيبًا وكفرًا. والآفة من الكافر لا من القرآن، كما قال – سبحانه وتعالى– ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ﴾[1] وقال –سبحانه وتعالى– ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝١٢٤ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[2].

ثم يخبر –تعالى– عن نقص الإنسان من حيث هو، إلا من عصم الله تعالى في حالتي سرائه وضرائه، بأنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية، وفتح ورزق ونصر، ونال ما يريد، أعرض عن طاعة الله وعبادته ونأى بجانبه، وبأنه إذا مسه الشر – المصائب والحوادث والنوائب {كَانَ يَئُوسًا}، أي: قنط أن يحصل له بعد ذلك خير.

ثم يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم، فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد، وينبه على شرف هذا القرآن العظيم، فيخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم، واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله، لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا، فإن هذا أمر لا يستطاع، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق، الذي لا نظير له، ولا مثال له، ولا عديل له؟!"[3].

**الصور الجمالية:**

**. هو شفاء ورحمة للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلا خسارا..**

الرسول ﷺ كالطبيب والعالم كله كالمرضى والقرآن هو الدواء، والدواء قد يصلح لناس ويكون لهم شفاء، وقد يتعاطاه مرضى آخرون فيزيد داءهم علة، وقد كان الحديث في الآيات الماضية عن النبي ﷺ ومقامه ومكانته، وفي هذه الآية

(١) سورة فصلت: ٤٤.

(٢) سورة التوبة: ١٢٤، ١٢٥.

(٣) تفسير ابن كثير – (٥ / ١١٢، ١١٧).

يأتي الحديث عن الدواء الذي جاء به هذا الطبيب.

وقد ذُكرت في مواطن أخرى – أوصاف أخرى للقرآن، إضافة إلى ما في هذه الآية، كما قال –سبحانه وتعالى– ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾[1]، وقال –سبحانه وتعالى– ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾[2] لكن القرآن يقتصر في هذه الآية على هذه الأوصاف فقط (شفاء ورحمة للمؤمنين، وخسارة للظالمين)؛ لأنها تتكلم عن تأثير القرآن على فريقين مختلفين في تعاملهما معه، الأول مقبل عليه راغب فيه، والآخر معرض عنه نافر منه، وهذا التفصيل ليس في شيء من الآيتين المذكورتين، غير أنه ورد هذا التقسيم في قوله –سبحانه وتعالى– ﴿**هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى**﴾[3].

وواضح أنه تقسيم بين مؤمن وكافر (الذين آمنوا، والذين لا يؤمنون) أما هنا فالكل مؤمن لكن منهم من ينتفع بالقرآن ومنهم من يجلس إليه فلا يزداد إلا خسارا، وهو الظالم لنفسه، وفي الدارمي عن قتادة قال: "ما جالس أحد القرآن فقام عنه إلا بزيادة أو نقصان ثم قرأ هذه الآية" [4] " فالآية تعطينا نموذجين لتلقي القرآن: إنْ تلقاه المؤمن كان له شفاء ورحمة، وإنْ تلقاه الظالم كان عليه خَسَارًا، والقرآن حَدَّدَ الظالمين ليُبَيِّن أن ظلمهم هو سبب عدم انتفاعهم بالقرآن؛ لأن القرآن خير في ذاته وليس خسارا.

وبيان ذلك أن الفعل قد يكون واحدًا، لكن يختلف القابل للفعل، ويختلف الأثر من شخص لآخر، كما أن الماء الزلال يشربه الصحيح، فيجد له لذة وحلاوة

(١) سورة يونس: ٥٧.
(٢) سورة النساء: ١٧٤.
(٣) سورة فصلت: ٤٤.
(٤) تفسير السراج المنير – (٢ / ٢٥٩).

ويشربه العليل فيجده مرا مائعا، فالماء واحد لكن المنفعل للماء مختلف"[١].

وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونئا بجانبه وإذا مسه الشر كان يئوسا.

(وَإِذَا أَنْعَمْنَا) بالصحة والسعة ونحوهما {على الإنسان} أي جنسه فيكفي في صحة الحكم وجوده في بعض الأفراد ولا يضر وجود نقيضه في البعض الآخر (أَعْرَضَ) عن ذكرنا كأنه مستغن عنا فضلاً عن القيام بواجب شكرنا (ونَأى بجَانِبِهِ) لوى عطفه عن طاعتنا وولاها ظهره.

وأصل معنى النأي البعد وهو تأكيد للإعراض بتصوير صورته فهو أوفي بتأدية المراد منه.

والجانب على ظاهره والمراد ترك ذلك، ويجوز أن يكون كناية عن الاستكبار فإن ثنى العطف من أفعال المستكبرين، ولا يبعد أن يراد بالجانب النفس كما يقال جاء من جانب فلان كذا، أي: منه، وهو كناية أيضا، كما يعبر بالمقام والمجلس عن صاحبه"[٢].

وهذه الصورة الحسية {ونَأَى بِجَانِبِهِ} ليست وحدها ما يستوقف الناظر في هذه الآية؛ إذ إن هناك مواطن أخرى للجمال، منها نسبة الخير إلى الله وعدم نسبة الشر إليه، وقد تقدم الحديث عن هذا الأمر وأشير إلى هذه الآية هناك، ومنها التعبير بالفعل في حال الإنعام – {أعرض ونَأَى بِجَانِبِهِ}، والتعبير بالجملة الاسمية المسبوقة ب (كان) في حال مسه الشر – {كان يئوسا}؛ وفيه إشارة إلى تجدد إعراض الإنسان وتكرر هذا الإعراض منه مع كل إنعام يساق إليه – وإفادة التجدد والتكرار من خصائص الفعل (أنعمنا، أعرض، نأى)، وإشارة إلى طبيعة مستقرة فيه حال وقع عليه ابتلاء " وإفادة الدوام والثبات من خصائص الاسم {يئوسا}".

(١) تفسير الشعراوي – (١ / ٥٢٨٧) بتصرف.

(٢) تفسير الألوسي – (١١ / ٦٥).

**كل يعمل على شاكلته**

يبدو الجمال هنا –أول ما يبدو– في وجه ارتباط هذه الآية بما قبلها؛ "وذلك لأنه تعالى بين في الآية المتقدمة أن القرآن بالنسبة إلى بعض الناس يفيد الشفاء والرحمة وبالنسبة إلى أقوام آخرين يفيد الخسارة والخزي ثم أتبعه بقوله: ﴿**قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ**﴾، ومعناه أن اللائق بتلك النفوس الطاهرة أن يظهر فيها من القرآن آثار الذكاء والكمال، وبتلك النفوس الكدرة أن يظهر فيها من القرآن آثار الخزي والضلال، كما أن الشمس تعقد الملح وتلين الدهن وتبيض ثوب القصار[1] وتسود وجهه.

وهذا الكلام إنما يتم المقصود منه إذا كانت الأرواح والنفوس مختلفة بماهياتها، فبعضها مشرقة صافية يظهر فيها من القرآن نور على نور، وبعضها كدرة ظلمانية يظهر فيها من القرآن ضلال على ضلال ونكال على نكال[2].

**ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي**

لا أفهم سر إصرار بعض المفسرين على القول بمكية هذه الآية، اعتمادا على أن السورة مكية، ويردون – دفاعًا عن مدعاهم – أحاديث صحيحة تنطق نصوصها بمدنية هذه الآية تحديدًا، وآيات أخرى قبل ذلك، فعند البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « بَيْنَا أَنَا مَعَ النَّبِيِّ فِي حَرْثٍ وَهُوَ مُتَّكِيٌّ عَلَى عَسِيبٍ إِذ مَرَّ الْيَهُودُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سَلُوهُ عَنْ الرُّوحِ فَقَالَ مَا رَأَيْكُمْ إِلَيْهِ وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا يَسْتَقْبِلُكُمْ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ فَقَالُوا سَلُوهُ فَسَأَلُوهُ عَنْ الرُّوحِ فَأَمْسَكَ النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ شَيْئًا فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ فَقُمْتُ مَقَامِي فَلَمَّا نَزَلَ الْوَحْيُ قَالَ ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**﴾[3]، ثم نجد حافظا كابن كثير يعدل عن

(١) القصار، والمقصر: المحور للثياب". قلت: هو الخياط، انظر: المحكم والمحيط الأعظم: ١٩٨/٦.

(٢) تفسير "مفاتيح الغيب" للفخر الرازي: ٢٨٤٩/١.

(٣) صحيح البخاري– طوق النجاة – ٨٧/٦، كتاب التفسير بَابُ {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ}

هذا الحديث الصحيح، الصريح في السببية، المروي عن أعلم الصحابة بالقرآن – أعني ابن مسعود – ليتمسك بحديث آخر عند غير البخاري فيقول: "وهذا السياق – يقصد الحديث – يقتضي فيما يظهر بادي الرأي: أن هذه الآية مدنية، وأنها إنما نزلت حين سأله اليهود، عن ذلك بالمدينة، مع أن السورة كلها مكية. وقد يجاب عن هذا بأنه قد يكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك، أو أنه نزل عليه الوحي بأنه يجيبهم عما سألوا بالآية المتقدم إنزالها عليه، وهي هذه الآية: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾، ومما يدل على نزول هذه الآية بمكة ما قال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا يحيى بن زكريا، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس قال قالت قريش ليهود أعطونا شيئا نسأل عنه هذا الرجل. فقالوا: سلوه عن الروح. فسألوه، فنزلت: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

قالوا: أوتينا علمًا كثيرًا، أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيرًا كثيرًا. قال: وأنزل الله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[1] [سورة الكهف: ١٠٩] وهذا لعمري تمسك من الحافظ رحمه الله في غير موضعه، فالحديث الأول أصح، وراويه شاهد النزول بعيني رأسه، في حين أن الحديث الآخر مروي عن ابن عباسﷺ، وهو الذي لم يشهد الواقعة بنفسه، فكيف نسوي بين الحديثين ؟!! ولن أسترسل في الكلام عن هذا الأمر – مكية الآية أو مدنيتها – أكثر من ذلك، معتمدًا على ما ورد عند البخاري عن ابن مسعود.

**أما الجمال في الآية فيتجلى فيما يلي:**

**أولاً: الروح.... والروح**

تكررت كلمة الروح مرتين في هذه الآية، والأرجح – اعتمادًا على مدنية الآية –

(١) تفسير ابن كثير: ٥/١١٤.

أن المراد بالروح في الموطنين هي الروح التي يحيا بها الإنسان، وهنا لابد من وقفة يجذبنا إليها السياق جذبًا، عن العلاقة بين الحديث عن (الروح) – بهذا المعنى – والحديث عن القرآن لقد جاء في نصوص صحيحة أن الأمة كلها جسم واحد، قال ﷻ ﴿**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ**﴾[1].

وعن النعمان بن بشير ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»[2]، ونصوص كثيرة أخرى تفيد هذا المعنى:

فإذا كان الجسد الإنساني لابد له من روح تحركه، فلابد لهذا الجسد الجماعي من روح تحركه، فالقرآن هو الروح التي تسري في هذه الأمة فتحييها، كما تسري الأرواح في أجساد المخلوقات فتحييها.

وقد يكون المراد بها في الموطنين جبريل –عليه السلام– أو القرآن الكريم اعتمادًا على الاستعمال الأكثر في القرآن

وقد يكون المراد بالروح الأولى جبريل، وهو الأكثر في استعمال القرآن[3] أو القرآن "وقد سماه الله روحا"[4] وأن المراد بالروح الأخرى ذلك الجوهر الذي يحيا به الإنسان ويكون في الآية جناس.

---

(١) سورة الصف: ٤.

(٢) صحيح مسلم (٤ / ١٩٩٩) – كتاب البر والصلة والآداب باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم حديث رقم (٢٥٨٦).

(٣) وردت كلمة (روح) معرفة بأل في ثمانية مواطن، ومعرفة بالإضافة إلى (القدس) أربع، وهي في جميعها (المعرفة بأل أو بالإضافة) تنصرف إلى جبريل.

(٤) قال وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنا ] [ الشورى: ٥٢ ]

**ثانياً: الروح من أمر ربي:**

كلمة (أمر)[١] هنا واسعة المدلول، بحيث تتسق مع معاني (الروح)، فلو كان المراد بالروح حقيقتها، وهي الجوهر الشفاف الذي هو سر الحياة، كانت (أمر) بمعنى الشأن، والمعنى: قل الروح من شأن ربي، فلا شأن لكم بها.

وإن كان المراد بها جبريل أو القرآن كانت (أمر) بمعنى الوحي، والمعنى: قل الروح من وحي ربي، ولا دخل لأحد في حدوثه.

**• اجتمعت الإنس والجن**

هناك عدة صور جمالية تسترعي الانتباه في هذه الآية، منها:

أولاً: تضمين الفعل (اجتمعت) معنى (اتفقت)؛ لما فيه من زيادة في المعنى، إذ إن (اتفق) لا يفهم معنى الاجتماع، فقد يتفق ناس دون اجتماع، أما (اجتمع) ففيه معنى الاتفاق، وزيادة معنى الاجتماع، فكأنهم اتفقوا على أمر واجتمعوا في مكان ما من أجل تنفيذ ما اتفقوا عليه.

ثانيًا: تأنيث الفعل (اجتمعت) في حالة لا يجب فيها تأنيث الفعل[٢]، بل يجوز أن

---

(١) جاء في قاموس القرآن للدامغاني: أمر تأتي في القرآن على ستة عشر وجها، منها الشأن، ومنها الوحي. انظر قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر للدامغاني ( ١/ ٣٨) قلت: ويصح إرادة المعنين هنا.

(٢) تاء التأنيث مع الفعل لها حالتان: الأولى: حالة وجوب... والأخرى: حالة جواز. فيجب اتصال تاء التأنيث بالفعل في موضعين: الأول: أن يكون الفاعل ضميراً مستتراً يعود على مؤنث حقيقي التأنيث أو مجازي التأنيث(٧٦٩) نحو: نجلاء وصلت رحمها، ففاعل (وصلت) ضمير مستتر، وكذا الحديقة أزهرت، قال تعالى: (فلما وضعتها قالت((٧٧٠) وقال تعالى (كمثل حبة أنبتت سبع سنابل)فالفاعل ضمير مستتر جوازا تقديره هي، والآخر أن يكون الفاعل اسماً ظاهراً حقيقي التأنيث متصلاً بفعله غير مراد به الجنس وغير جمع، نحو: روت عائشة رضي الله عنها – أحاديث كثيرة، قال تعالى: (وقالت امرأت فرعون)، وقال تعالى: (إذ تمشى أختك) وقال تعالى: (قالت نملة) فإن كان الاسم الظاهر مجازي التأنيث لم يجب تأنيث الفعل نحو انتهت الحرب. وانتهى الحرب، قال تعالى: (فما ربحت تجارتهم) وقال تعالى: (فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف). ==

يقال "في غير القرآن": اجتمع الإنس والجن، لكن إيثار تأنيث الفعل لدلالة صيغة التأنيث على الضعف، وكأن الآية تقول: إنهم مهما اجتمعوا واتفقوا على هذا الأمر ونحوه، فهم أضعف من أن يؤثروا في القرآن شيئًا.

**ثالثًا:** عطف الجن على الإنس – وهما لا يشتركان في أمر واحد؛ لقدم العداوة بينهما، ولاختلاف الطباع في كل منهما يشير إلى أن الفريقين قد تناسيا ما بينهما من خلافات، من أجل محاربة هذا القرآن والنيل منه

**رابعًا وأخيرا:** تقديم الإنس على الجن، رغم سبق الجن في الخلق باعتبار أن الرسول من الإنس، فقدم الإنس تكريمًا لهم لأن الرسول –صلى الله عليه وسلم– منهم، وقد تقدم – غير مرة أن السورة تدور حول محور التكريم.

بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله

مِثْلُ: "كلمةُ تَسْوِيَة يقال هذا مِثْله ومَثَله كما يقال شبهه وشَبَهُه بمعنى قال ابن بري: الفرق بين المُماثلة والمساواة أن المساواة تكون بين المختلفين في الجنس والمتفقين لأن التّساوي هو التكافؤ في المقدار لا يزيد ولا ينقص وأَما المُماثلة فلا تكون إلا في المتفقين تقول نحوه كنحوه وفقهه كفقهه ولونه كلونه وطعمه كطعمه فإذا قيل هو مثلة على الإطلاق فمعناه أنه يسد مسده"(١).

وقد جاءت في القرآن على أكثر من وجه غير هذا المعنى الذي وضعت له – فجاءت بمعنى الصفة كما قال ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ**﴾(٢)، وجاءت

---

= ويؤنث جوازاً في المواضع الآتية: الأول: أن يكون الفاعل مؤنثاً مجازياً.
الثاني: أن يكون الفاعل مؤنثاً حقيقياً فصل عن فعله بفاصل.
الثالث: أن يكون الفاعل جمع سلامة لمؤنث، أو جمع تكسير لمذكر أو مؤنث، قال تعالى: (لقد جاءت رسل ربنا بالحق) وقال تعالى: (قل قد جاءكم رسل من قبلي). ويلحق بالجمع اسم الجمع، كما قال تعالى فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة) وقال تعالى: بَيَّت طائفة منهم غير الذي تقول)، انظر: دليل السالك إلى ألفية ابن مالك: ١/١٧٧– ١٧٩ (بتصرف).

(١) لسان العرب: ١١/٦١٠.

(٢) سورة آل عمران: ٥٩.

بمعنى العبرة كما قال –سبحانه وتعالى–: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ﴾[١]، وجاءت بمعنى السنن الإلهية كما قال –سبحانه وتعالى–: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوّلِينَ﴾[٢].

وهي هنا قد تكررت مرتين، فجاءت على أصل وضعها في الموضع الأول، وجاءت بمعنى الصفة في الموضع الآخر، وبيان ذلك: أن التحدي قد وقع على المشركين –باختلاف أنواعهم– أن يأتوا بقرآن أنفسهم – يماثل هذا القرآن، وحتى لا تنصرف الأذهان إلى حجم القرآن أو إلى شيء خاص فيه كالقصص ومشاهد الكون – أكد على المطلوب في التحدي، وهو أن يكون ما أتوا به، على صفة القرآن في أسلوبه، الذي عجز كفار مكة –هم وشركاؤهم– عن أن يأتوا بسورة مثله. يقول العلامة ابن عاشور: "والمراد بالمماثلة للقرآن: المماثلة في مجموع الفصاحة والبلاغة والمعاني والآداب والشرائع، وهي نواحي إعجاز القرآن اللفظي والعلمي"[٣].

## الفقرة الرابعة الأخيرة [٩٠– ٩٨]

### تعنت المشركين في الدنيا وعقابهم في الآخرة

قال –سبحانه وتعالى– ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنّةٌ مِنْ نَخِيلَ وَعِنَبٍ فَتُفَجّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيّكَ حَتّى تُنَزّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبّي هَلْ كُنْتُ إِلّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنّينَ لَنَزّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنّهُ كَانَ

(١) سورة الزخرف: ٥٦.

(٢) سورة الزخرف: ٨.

(٣) التحرير والتنوير: ٢٠٣/١٥، الطبعة التونسية.

بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وبُكْما وصمّا مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّما زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ سورة الإسراء: ٩٠ – ٩٨.

**علاقة الآيات بما قبلها:**

"بعدما تحدى الله المشركين بأن يأتوا بمثل هذا القرآن، وبعدما ألزمهم الحجة، وغلبوا على أمرهم، ببيان إعجاز القرآن مع ظهور معجزات أخرى غيره، فتبين عجزهم عن ذلك، وإعجاز القرآن، أخذوا يتعللون، ويقترحون آيات أخرى تعنتا وحيرة، فطلبوا إحدى آيات ست"(١).

**المعنى العام للآيات:**

يخبر الله ﷻ في هذه الآيات عن تعنت المشركين مع الرسول ﷺ ورسالته ويطلبون إليه أمورًا ليست في قدرته كبشر أن يجيبهم إليها، وهذا دأب الطغاة المستكبرين في كل زمان ومكان، أن يطلبوا الخوارق والمعجزات من رسلهم، ثم يرفضوا الإذعان والإيمان برسلهم رغم أنهم قد أتوهم بمعجزات، والحال أن الله ﷻ لا يرسل رسولاً إلى أمة إلا كان من جنسهم حتى يفهموا عنه، فلو كانوا ملائكة لأرسل إليهم ملكًا رسولا؛ ومن أجل هذا التعنت الواضح من الكفار يوجه القرآن النبي ﷺ ألا يلتفت إليهم في شيء، وألا يشغل باله بهدايتهم، فالهادي هو الله، أما هؤلاء المتعنتون الذين عموا عن آياتنا وصموا عنها آذانهم وصدوا عنها أشياعهم، فلهم في الآخرة جزاء من جنس أعمالهم، إذ يحشرون عميًا وبكما وصمًا، يساقون إلى جهنم وبئس المصير.

**<u>الصور الجمالية</u>:** لن نؤمن لك.. ولن نؤمن لرقيك

الفعل (آمن) يأتي لازمًا ومتعديًا، فيأتي لازمًا ويكون بمعنى أسلم، ويقابله

(١) التفسير المنير للزحيلي – (١٥ / ١٦٤).

(كفر)، كقوله –سبحانه وتعالى– ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ**﴾(١).

ويأتي متعديًا، وهو – إذا تعدى – يأتي على حالين، فتارة يتعدى بالباء فيقال آمنت بالله، أي: صدقت به، ويقابله "كفر" متعديًا" بالباء أيضا، فيقال: كفر بالله، و (كذب) متعديًا بالباء أيضا، ومنه قوله –ﷻ – ﴿**أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ**﴾ **وقوله:** ﴿**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بالصدق إِذْ جَاءَهُ**﴾(٢).

وأخرى يتعدى باللام فيقال: آمنت لله، أي أذعنت واستسلمت، ومنه الآية التي: معنا هنا {لن نؤمن لك... ولن نؤمن لرقيك} وتعديته باللام هنا – رغم أن المطلوب التصديق الذي هو معنى آمن لازمًا أو متعديًا بالباء – لأنه المناسب لجو التحدي الذي دعوا إليه في الآية السابقة {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله} فكأنهم حاولوا وعجزوا، ووجب عليهم التسليم لروعة القرآن وجلال النبي ﷺ لكنهم أبوا أن يسلموا له وأعلنوها: لن نؤمن لك !

**قوله –سبحانه وتعالى– ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾.**

**الصورة الأولى** هنا في التعبير بالناس في بداية الآية والتعبير بالبشر في ختامها، وقد تقدم الكلام عن الفرق بين البشر والناس ودلالة كل منهما، فيراجع في المسألة الثانية من الفقرة الأولى.

**والصورة الثانية** التعبير بالمصدر المؤول في موطنين (أن يؤمنوا، أن قالوا) والتقدير: وما منع الناس الإيمان إلا قولهم: (أبعث الله بشرا رسولا)، وقد جاء في الفرق بين المصدر الصريح والْمُؤوّل مَعَ اشْتِرَاكِهِمَا فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْحَدَثِ: أَنَّ موْضُوعَ الصَّرِيحِ الْحَدَثُ فَقَط وَهُوَ أَمْرٌ تَصَوَّرِيٌّ، وَالْمُؤوَّلُ يَزِيدُ عَلَيْهِ بِالْحُصُول إِمَّا

(١) سورة البقرة: ٢٥٣.

(٢) سورة الزمر: ٣٢.

مَاضِيًا وَإِمَّا حَالًا وَإِمَّا مُسْتَقْبلًا إِنْ كَانَ إِثْبَاتًا، وبِعَدَمِ الْحُصُولِ فِي ذَلِكَ إِنْ كَانَ مَنْفِيًّا وَهُوَ أَمْرٌ تَصْدِيقِيٌّ وَلِهَذَا يَسُدُّ أَنَّ وَالْفِعْلُ مَسَدَّ الْمَفْعُولَيْنِ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنْ النِّسْبَةِ"[1]، وبتطبيق هذا الكلام على الآية هنا نفهم أن المعنى: ليست بشرية الرسل هي السبب الوحيد عند بعض الناس في عدم الإيمان، بل هذا كان سببًا عند بعض الناس المعاصرين للنبي –صلى الله عليه وسلم–، فيكون (الناس) في الآية عاما يراد به خصوص وهم أهل مكة.

**﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾**.

الجمال في هذه الآية يظهر في التعبير والتركيب والترتيب.

**<u>أما جمال التعبير</u>** فيظهر في اختيار (يمشون) دون يتحركون مثلا أو يعيشون؛ ولعل ذلك لغرضين:

**الأول:** أن المعروف أن طبيعة خلق الملائكة تختلف عن طبيعة خلق البشر وسائر المخلوقات الأرضية، فالملائكة مخلوقات نورانية، فتحركاتهم – بالنسبة إلى تحركات البشر – كسرعة الضوء (وأصله النور) بالنسبة للسرعة العادية؛ إذ إن كل جسم سار بسرعة الضوء صار ضوءًا والملائكة تسير بهذه السرعة كما قال – سبحانه وتعالى– ﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون﴾، ومن ثم فالتعبير عن الملائكة بأنهم (يمشون) متنافٍ مع طبيعتهم التي تقضي بسرعة حركتهم، لكن الناظر في سياق هذه الآية يجد كلمتين يجعلان التعبير بيمشون دون غيرها – هو الأنسب وهما: (الأرض، مطمئنين).

فتقييد وجود هؤلاء الملائكة ب (الأرض) يلزمهم أن تكون حركتهم مناسبة لهذه الأرض، والحركة الشائعة في الأرض هي المشي، كما قال ﷻ ﴿وَلَا تمش فِي

(١) رد المحتار: ٣/٤٦٢.

الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضِ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولا﴾[١] وقال ﷻ ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ**﴾[٢]، وقال ﷻ – ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النشور**﴾[٣].

والتعبير عمن يمشون بلفظة (مطمئنين) مناسب لحركة المشي؛ لأن غير المطمئن لا يمشي، بل يسعى وربما يجري، ولذا كان المطلوب من المصلي أن يأتي إلى الصلاة ماشيًا لا ساعيًا؛ لأن المشي علامة السكينة والوقار والطمأنينة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا سَمِعْتُمْ الْإِقَامَةَ فَامْشُوا إِلَى الصَّلَاةِ وَعَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ وَلَا تُسْرِعُوا فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُوا»[٤].

**والآخر**: مناسبة (يمشون) لمعنى (الإسراء) الذي يرجع في أصله إلى السير، وهو الحركة الخفيفة، فسار ومشى يتناوبان إذا انفردا.

ويبدو جمال التعبير أيضا في ذكر (من السماء) رغم أن ذلك مفهوم من (لنزلنا)، لكن لعل ذلك ليكون هناك تقابل بين (في الأرض) وكأن المعنى: إن كل من في الأرض يحتاج إلى من (في السماء) حتى لو كانوا ملائكة !!

---

(١) سورة الإسراء: ٣٧.

(٢) سورة النور: ٤٥.

(٣) سورة الملك: ١٥.

(٤) صحيح البخاري (١) / (١٢٩) كِتَاب مَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ / بَاب لا يَسْعَى إِلَى الصَّلَاةِ وَلْيَأْتِ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ وَقَالَ مَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وَمَا فاتكُمْ فَأَتِمُّوا قَالَهُ أَبُو قَتَادَةَ عَنْ النَّبِيِّ –صلى الله عليه وسلم– حديث رقم ٦٣٦

**وأما جمال التركيب** فيبدو في تقديم (ملكا) على (رسولا) مع أن (ملكا) حال منه[1]، والأصل أن يقدم صاحب الحال (رسولًا) على الحال (ملكا) لكن التقديم هنا جاء لأهمية المقدم على المؤخر، فالمفترض الآن أن سكان الأرض ملائكة فالمطلوب الأول أن يأتيهم (ملك) ثم تنزل عليه الرسالة فيصير (رسولا)؛ ولنفس الغرض تقدم (بشرا) على (رسولا) مع اختلاف الداعي إلى تقديمه هناك فتقديمه هناك كان على سبيل الاستنكار واللجاجة من المشركين: "أبعث الله بشرًا رسولًا ؟!! "والمعنى: هل يكون البشر رسولا ؟ وتقديمه هنا كان على سبيل الإقرار: لنزلنا عليهم من السماء ملكًا رسولا" والمعنى: الأصل في الرسول أن يكون من جنس قومه فالملائكة لهم ملك رسول، والبشر لهم بشر رسول.

**وأما جمال الترتيب** ففي تقديم الجار والمجرور (في الأرض) على متعلقاته (ملائكة، يمشون مطمئنين) والترتيب في غير القرآن: (قل لو كان ملائكة في الأرض، يمشون فيها، مطمئنين فيها).. ولكن المعنى هنا سيختل؛ لأنه سيفهم أنه لا ملائكة أصلا على الأرض، ونصوص الوحي ناطقة بأن البشر محاطون بملائكة، لهم وظائف مختلفة، فمنهم الحفظة، ومنهم الكتبة، ومنهم المثبتون للمؤمنين كما قال –سبحانه وتعالى– ﴿**إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾[2]، وقال –سبحانه وتعالى– ﴿**لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ**﴾[3] وقال –سبحانه وتعالى– ﴿**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كاتبين**﴾[4] أما بهذا الترتيب فالمفهوم – في هذه الصورة الافتراضية – أن الملائكة

---

(١) قال الزمخشري: " فإن قلت: هل يجوز أن يكون بشراً وملكاً، منصوبين على الحال من رسولاً ؟ – قلت: وجه حسن والمعنى له أجوب" الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل – (٢ / ٦٤٩)

(٢) سورة الأنفال: ١٢.

(٣) سورة الر عد: ١١.

(٤) سورة الانفطار: ١٠

هم سكان الأرض الأصيلون، وساعتها ستنزل الرسالة على واحد منهم.

**قوله –سبحانه وتعالى– ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾(١).**

ورد ذكر هذه الأوصاف مجموعة ومثناة في القرآن الكريم في غير موطن، وقد تقدم الوصف بالصمم على غيره في جميعها قال ﷻ ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾(٢) وقال ﷻ **﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۝ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾**(٣). وقال ﷻ **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾**(٤).

**والسؤال: ما سر مخالفة هذا الترتيب في هذه الآية ؟**

أقول وبالله التوفيق: السبب في ذلك مراعاة الحاجة إلى الجوارح في زمن الوصف، ولتوضيح ذلك أقول: إن الآيات التي تقدم فيها الوصف بالصمم على الوصف بغيره يقصد بها لحوق ذلك الوصف بأصحابه في الدنيا – بقرينة السياق الذي ذكرت فيه – وما ذلك إلا لأن حاجة الإنسان إلى السمع في الدنيا أكثر من حاجته إلى غيره من الحواس، إذ به يفهم ويعقل فتقوم عليه الحجة إن لم يعمل بما علم، ولما كان سماع الوحي خيرا كله فقد حرم الله الكفار منه في الدنيا ﴿ **وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾ – فقال في حقهم: ﴿ كانوا أنفسهم يظلمون﴾؛ أما الآية التي معنا فزمن الوصف بها هو يوم القيامة وحاجة الإنسان

---

(١) سورة الإسراء: ٩٧.

(٢) سورة البقرة: ١٨.

(٣) سورة النمل ٨٠، ٨١.

(٤) سورة النحل: ٣٣.

فيه إلى السمع ليست بقدر حاجته إلى البصر، فهو يحتاج إلى البصر ليرى كتابه، أما المؤمن فيراه ويتناوله بيمينه، وأما الكافر فلا يراه فيعطاه بشماله، ويحتاج الإنسان إلى البصر ليرى الصراط فيعبر عليه، أما المؤمن فيرى الصراط كأنه جسر وأما الكافر فلا يراه فتزل قدمه في النار، فلما كانت حاجة الكفار إلى البصر في الآخرة أكثر حرمهم الله منها أولا، ثم كان الحرمان من الكلام باللسان؛ لأن سائر الجوارح هي التي ستشهد عليهم كما قال ﷻ: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(١).

وثمة أمر آخر أشار إليه القرآن الكريم، وهو أن العمى واقع في الآخرة على الكفار قبل غيره من البكم والصمم(٢)، وذلك في قوله تعالى – ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾(٣)، فالأعمى ههنا يتكلم ثم هو بعد قليل يجادل ربه « يقول يا رب ألم تجرني من الظلم ؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدًا مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا وبالكرام الكاتبين شهودًا، قال فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام، قال: فيقول: بعدًا لكنَّ وسحقًا فعنكن كنت أناضل»(٤)، ثم إذا ألقي في

(١) سورة يس: ٦٥.

(٢) وردت آيات أخرى تشير إلى أن الكفار يبصرون وينطقون ويسمعون، ووجه الجمع بينها وبين الآية التي معنا أن يقال باختلاف الوقت والحال، فهم في حال يبصرون وينطقون ويسمعون وفي حال أخرى لا يحصل لهم شيء من ذلك ؛ أو يقال باختلاف فرقهم وطوائفهم فطائفة عمي وطائفة بكم وطائفة صم وتكون كل طائفة من هؤلاء مستثناة من الآية التي تشير إلى ضدها، والأول أوفق وأولى لخلوه من التأويل. والله تعالى أعلم.

(٣) سورة طه: ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦.

(٤) رواه مسلم عن أنس بن مالك في أول كتاب الزهد والرقائق، حديث رقم: ٢٩٦٩.

النار فإنه يفقد سمعه كما قال –سبحانه وتعالى– ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾[1] فكأن ذكر العمى والبكم والصمم مرتب بحسب وقوعه في الآخرة، نسأل الله العفو والعافية.

وهناك أمر ثالث أشارت إليه قواعد اللغة في الآية، هو أن هذه الثلاثة (عميًا وبكما وصماً) أحوال، من ضمير الغائبين في (ونحشرهم) وهو ينطبق على أفراد كثيرين، فإذا كان صاحب الحال متعددا والحال متعددًا أيضا صح انصراف كل حال إلى معين، ولا يلزم رجوع الأحوال كلها إلى كل المذكورين[2].

فصح أن يكون المعنى: أن بعضهم يكون أعمى، وبعضهم يكون أبكم وبعضهم يكون أصم، ولا شك أن أشد الأحوال على النفس هو العمى للحاجة إليه كما قدمت في بداية المسألة – ولأنه ظاهر فيكون أمره مكشوفا أمام أهل الموقف جميعا؛ نسأل الله السلامة؛ والله تعالى أعلم.

(١) سورة الأنبياء: ﴿، ١٠٠.

(٢) قال ابن عقيل: يجوز تعدد الحال وصاحبها مفرد أو متعدد فمثال الأول جاء زيد راكبا ضاحكا،.. ومثال الثاني لقيت هندا مصعدا منحدرة فمصعدا حال من التاء ومنحدرة حال من هند،.... فعند ظهور المعنى ترد كل حال إلى ما تليق به، وعند عدم ظهوره يجعل أول الحالين لثاني الاسمين وثانيهما لأول الاسمين " انظر: شرحه ألفية ابن مالك ٢/ ٢٧٤، ٢٧٥.

# الخـاتمة

الحمد لله الذي شرفني بالنظر في كتابه، والصلاة والسلام على النبي العربي وأصحابه، وبعد:

فالقاصد إلى إبراز بلاغة القرآن يعتمد –غالبا– على ملكاته اللغوية في رسم أطراف الصورة القرآنية، وهذا يعد من تفسير القرآن بالرأي ، والله يعلم أن زادي في هذا الأمر قليل، وبضاعتي فيه مزجاة، ومن ثم أشعر أني على خطر عظيم، يزيد الأمر صعوبة تشابه الآيات في حسنها. لكن من بمولاه لاذ نجا وفاز، وفيما يلي بعض ما أداني إليه النظر في سورة "الإسراء" وآيات ربع "ولقد كرمنا"، ملتمسا التوفيق من الله، ومستعينا بالأدوات المعينة، ومؤكدًا – غير مرة أنه اجتهاد غير ملزم؛ فقد يظهر غيره عندي أو عند غيري...

**ومن أهم ما وفقت إليه "والله تعالى أعلم بمراده" ما يلي:**

- المتأمل في سورة الإسراء يجد أن موضوعها الرئيس هو "التكريم والتفضيل"؛ تكريم المسجد الأقصى، وتكريم القرآن لذويه، وتكريم المجتمع المسلم، وتكريم الله للبشر على الجن، وتكريم الله للإنسان.
- ويتخلل كل هذا التكريم أمران: تنزيه الله سبحانه، وتمجيد الوحي "رسولًا ورسالة". وكلاهما بارز في السورة من أولها إلى آخرها.
- للإسراء معنيان؛ الارتفاع والفضل، والسير ليلا وما يشتمله من حركة خفية، وقد تجليا في آيات السورة عامة، وآيات الربع خاصة إشارة وتصريحا.
- يمكن القول: إن أسماء السور –باعتبارها توقيفية– لها دلالات وتطبيقات في آيات السورة ذاتها.
- كذلك فإن هناك ارتباطا وثيقا بين الأسماء المتعددة للسورة الواحدة، وقد ظهر ذلك جليا في اسمي هذه السورة المباركة.

- أخيرا يوصي الباحث بضرورة تثوير المناسبات في أسماء السور فذلك باب كبير من الجمال القرآني.

هذا، ما وفقت إليه فاللهم ربنا إني قد تدبرت آياتك كما أمرتنا فأثبني كما وعدتنا، اللهم إن كان ما قلتُ –في كتابك المبارك– هو الحق من عندك فتقبله مني، واجزني به خيرا، وإلا فاعف عنّي فيه واغفره لي إنك أنت العفو الغفور.

**تم بحمد الله**

# فهرس أهم المصادر والمراجع

**أولا: القرآن الكريم.**

**ثانيًا: الكتب المطبوعة:**


- **الإتقان في علوم القرآن** لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت٩١١هـ) تحقيق: سعيد المندوب، دار الفكر – (١٤١٦ هـ – ١٩٩٦م).
- **إصلاح الوجوه والنظائر** للدامغاني (ت٤٧٨هـ). تح: محمد حسن أبو العزم١٩٩٢م.
- **أنوار التنزيل وأسرار التأويل** للبيضاوي (ت ٦٩١ هـ). دار الفكر "بيروت" (بدون).
- **الإيضاح في علوم البلاغة** للخطيب القزويني (ت ٧٣٩ هـ). تح: د. محمد عبد المنعم خفاجي – دار الجيل – بيروت الطبعة الثالثة (بدون).
- **البرهان في علوم القرآن** لمحمد بن عبد الله الزركشي (٧٩٤ت هـ)– تح الأستاذ: محمد أبو الفضل إبراهيم – مكتبة دار التراث – القاهرة (بدون).
- **البلاغة العربية**؛ أسسها وعلومها وفنونها لعبد الرحمن الميداني دار القلم "دمشق" ١٩٩٦م.
- **البلاغة الواضحة** للأستاذين: علي الجارم ومصطفى أمين. الدار المصرية السعودية (القاهرة) ٢٠٠٥م.
- **تأويلات أهل السنة** لأبي منصور الماتريدي (ت ٣٣٣هـ). تح: د. مجدي باسلوم. دار الكتب العلمية " بيروت" ٢٠٠٥ م.
- **التحرير والتنوير** للشيخ / محمد الطاهر بن عاشور (ت١٩٧٣م). دار سحنون (تونس) ١٩٩٧م.
- **تفسير الشيخ محمد متولي الشعراوي** (ت (١٩٩٦م " الخواطر ". مطابع أخبار اليوم. بدون.

- **تفسير القرآن العظيم** لابن كثير القرشي ( ت ٧٧٤هـ) . تح: محمود حسن . دار الفكر (١٤١٤هـ / ١٩٩٤م).
- **التفسير الكبير** المسمى مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (ت ٦٠٤ هـ) – دار الكتب العلمية " بيروت " ( ١٤٢١ هـ ).
- **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**. د. وهبة الزحيلي. دار الفكر المعاصر "دمشق". ط ٢ ١٤١٨ هـ.
- **التفسير والمفسرون**. د. محمد حسين الذهبي. مكتبة وهبة "القاهرة"
- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** لا بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ ) . دار الفكر – بيروت ( ١٤٠٥هـ ).
- **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع** للهاشمي (ت ١٣٦٢هـ). بعناية د. يوسف الصميلي المكتبة العصرية "بيروت".
- **خزانة الأدب وغاية الأرب** لابن حجة الحموي – تحقيق: عصام شقيو . دار ومكتبة الهلال – بيروت (١٩٨٧م).
- **دليل السالك إلى ألفية ابن مالك** للشيخ. عبد الله بن صالح الفوزان.
- **رد المحتار على الدر المختار** لابن عابدين الحنفي (ت ١٢٥٢هـ). دار الفكر "بيروت". ط٢ ١٩٩٢ م.
- **روح المعاني** لأبي الفضل شهاب الدين الآلوسي (ت ١٢٧٠ هـ). دار إحياء التراث "بيروت".
- **الروض الداني** (المعجم الصغير) للطبراني (ت ٣٦٠ هـ ) . تح: محمد شكور محمود المكتب الإسلامي، دار عمار – عمان ( ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥٠م).
- **السراج المنير** في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير لشمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشربيني (ت٩٧٧هـ) دار الكتب العلمية "بيروت". ط ٢. مصورة عن مطبوعة سنة ١٢٨٥هـ.
- **سنن أبي داود** (ت٢٧٥هـ) تح الشيخ: محمد عبد الحميد . دار الفكر (بدون).

- **شرح ابن عقيل** ( ت ٧٦٩ هـ على ألفية ابن مالك، ومعه منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل تأليف: محمد محيي الدين عبد الحميد – دار الفكر – دمشق الطبعة الثانية ( ١٩٨٥ م).
- **شرح الكوكب المنير** لابن النجار (ت ٩٧٢هـ ) – تحقيق: محمد الزحيلي ونزيه حماد. مكتبة العبيكان . ط ٢ ١٩٩٧م.
- **شعب الإيمان** للبيهقي (ت٤٥٨هـ). بعناية: محمد زغلول. دار الكتب العلمية "بيروت" ١٤١٠هـ.
- **صحيح البخاري** ( ت ٢٥٦ هـ ) – تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي . دار البشائر الإسلامية – بيروت. ط ٣ (١٤٠٩ هـ. ١٩٨٩ م).
- **صحيح مسلم** (ت ٢٦١هـ) بشرح الإمام النووي (ت ٦٧٦هـ). دار الخير "بيروت " ط ١٩٩٦٣م.
- **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل** وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري (ت٥٣٨ هـ) . تح: عبد الرزاق المهدي – دار إحياء التراث العربي – بيروت (بدون).
- **لباب التأويل في معاني التنزيل** لأبي الحسن الخازن (ت ٧٤١هـ). تصحيح: محمد شاهين. دار الكتب العلمية "بيروت" ١٤١٥هـ.
- **لسان العرب** لابن منظور (ت ٧١١ هـ ). تح: عبد الله الكبير وزميليه . دار المعارف (بدون).
- **لمسات بيانية في نصوص من التنزيل:**. فاضل السامرائي. دار عمار للنشر والتوزيع عما ن ". ط ٣ ٢٠٠٣ م.
- **المحرر الوجيز** في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (ت٥٤٦ هـ). تح: عبد السلام عبد الشافي. دار الكتب العلمية " بيروت ١٩٩٣م.

- **المحكم والمحيط الأعظم** لابن سيده ( ت ٤٥٨ هـ) . تح: د. عبد الحميد هنداوي دار الكتب العلمية" بيروت "٢٠٠٠م.
- **المحيط في اللغة** للصاحب ابن عباد ت (٣٨٥هـ ). تح: الشيخ محمد حسن آل ياسين. عالم الكتب " بيروت" ١٩٩٤م.
- **المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام لابن تيمية** (ت ٧٢٨هـ) . بعناية: محمد قاسم ١٤١٨ هـ.
- **مسند الإمام أحمد بن حنبل** (ت ٢٤١هـ). تح الشيخ: شعيب الأرنؤوط وآخرين. مؤسسة الرسالة "بيروت". ط ٢ ١٩٩٩م.
- **مشكل إعراب القرآن** لمكي القيسي (ت ٤٣٧هـ ) تحقيق: د. حاتم صالح الضامن. مؤسسة الرسالة "بيروت" ١٤٠٥هـ.
- **معاني القرآن** للأخفش الأوسط (ت ٢١٥هـ). تح: د. هدى محمود قراعة. مكتبة الخانجي " القاهرة " ١٩٩٠م.
- **المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم**. د. محمد حسن جبل. مكتبة الآداب (القاهرة) ٢٠١٠ م.
- **المعجم الوسيط** مجمع اللغة العربية . دار الدعوة (بدون).
- **النحو الوافي** للأستاذ/ عباس حسن ( ت١٩٧٨م). دار المعارف. ط٧ ١٩٨٢م.
- **الوجوه والنظائر** لأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ). بعناية: محمد عثمان. مكتبة الثقافة الدينية " "القاهرة" ٢٠٠٧م.

**ثانيًا**: الرسائل العلمية:

- **من أسرار الترتيب بين المتعاطفات بالواو** من أول سورة يونس حتى ختام القرآن الكريم" – رسالة الباحث لنيل درجة العالمية.

# فهـرس المـوضـوعـات


| م | الموضوع | الصفحة |
|---|---|---|
| ١- | **المقـدمــة** :..... | ٤٨ |
| ٢- | **التمهيد:** التعريف بالسورة الكريمة، وبيان العلاقة بين اسميها | ٥٠ |
| ٣- | **الفصل الأول: وجوه المناسبات في السورة** | ٥٨-٧٦ |
| ٤- | **المبحث الأول:** علاقتها بجارتها :..... | ٥٨ |
| ٥- | **المبحث الثاني:** علاقة اسميها بموضوعاتها :..... | ٦٠ |
| ٦- | **المبحث الثالث:** علاقة أولها بآخرها :..... | ٦٦ |
| ٧- | **المبحث الرابع:** الموضوع العام للسورة :..... | ٦٨ |
| ٨- | **الفصل الثاني: المناسبات في آيات السورة الكريمة، ربع (ولقد كرمنا بني آدم) للتطبيق عليه** | ٧٨-١٣١ |
| ٩- | الصور الجمالية في آيات السورة الكريمة :..... | ٧٨ |
| ١٠ | الفقرة الأولى (٧٠ – ٧٢) التكريم العام والتكريم الخاص ... | ٨١ |
| ١١- | الفقرة الثانية (٧٣ – ٨٠) كرامة سيدنا محمد – على ربه .. | ٩٤ |
| ١٢- | الفقرة الثالثة (٨١- ٨٩) جلال القرآن الكريم وعلو قدره .... | ١١٤ |
| ١٣- | الفقرة الرابعة الأخيرة (٩٠ – ٩٨) تعنت المشركين في الدنيا وعقابهم في الآخرة :..... | ١٢٣ |
| ١٤- | **الخاتمة وأهم النتائج** :..... | ١٣٢ |
| ١٥- | **فهرس المصادر والمراجع** :..... | ١٣٤ |
| ١٦- | **فهرس الموضوعات** :..... | ١٣٨ |